(١١)

الحب.. على الطريقة المصرية

الحب بهدلة .. الحب بلا*

«مثل شعبى»..

كلنا عشاق لمصر، ونحن نعشقها على الطريقة المصرية، والمصرى عندما يريد أن يقول لحبيبته إنه يحبها بلا حدود، يقول لها: أحبك موت، أو ينظر إليها بعيون والهة ويقول: عاوز أكلك أكل، ولهذا فإن مصر تموت فى أيدينا، لأننا نحبها موت ونأكلها أكلا، وسنظل نأكلها بالحب حتى لا تصير هناك مصر، ونتحول جميعا إلى لاجئين فى قوارب فى البحر المتوسط، كما هو الحال مع الفيتناميين. ومن الآن يتحول الكثيرون منا إلى رجال قوارب، لأنهم لا يجدون مترا مربعا من الأرض يعيشون فيه، والشقق تبنى بالألوف، ولكنك لابد أن تدفع الألوف لكى تطأ عتبة شقة منها. والشىء الوحيد الذى تستطيع أن تفعله هو أن تصعد إلى الدور السابع فما فوق. ثم تقفز وتمضى إلى دار البقاء مجانا، ولابد أن تحمد الله على أنك محظوظ، لأنك لم تودع الدنيا من غرفة مظلمة رهيبة فى منزل آيل للسقوط فى حارة شق التعبان فى الدرب الأحمر.

وعندما كان السادات بيننا كان الألوف يهتفون حتى تنشق حناجرهم: بالروح بالدم، نفديك يا سادات! والرجل المسكين قتل وحده ولم يفده أحد لا بماله ولا بدمه، ودفن وحده لم يشيعه إلا الرسميون، وسيحشر وحده، ويصدق عليه قول رسول الله فى أبى ذر الغفارى: يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده.

أما الذين كانوا يزلزلون الأرض بهتافهم للسادات، فقد ذهبوا يومها ووقفوا فى طوابير الجمعية أو ذهبوا بالسراكى فى أيديهم ليصرفوا معاش السادات دون أن يترحموا عليه، وهذا أيضًا حب. حب على طريقة بلدنا.

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٣ فبراير ١٩٨٣م .

واليابانى يحب بلاده، ولكنه حب حياة. أقصى أمانية أن يموت فى سبيل اليابان. واليابان كلها بستان رائع، لأن أهلها يحبونها على الطريقة اليابانية، ويعبرون عن حبهم بالصدق والإخلاص والعمل، والماكينة التى يعمل عليها قطعة من كيانه. بعد أن تنتهى ساعات العمل المقررة يهدى اليابانيون بلادهم ساعة عمل مجانا، ويقضون ساعة أخرى فى تنظيف الآلات والعنابر. والعامل يرعى ماكينته كأنها بنته، ورئيس العنبر يمر على العمال ويرى ماكيناتهم وهى تلمع، وينظفون العنبر كله ثم يغلقون الباب عليه كما يغلق الوالد الباب على وليده النائم. وهذا حب. والأوسطى شعبان يكسر نوافذ العنبر ليتدفق إليه التراب، ويوقف الآلات ويصل إلى المصنع متأخرا ساعة، ويأكل ساندويتش الفول، ويمسح يديه فى الماكينة، ويدير الماكينة على الفاضى، ويقف ليتكلم مع إخوانه عن الحوافز، ويعمل ساعتين، ثم يسمع أذان صلاة الظهر فيدع الآلة دائرة ويسرع للوضوء، لأنه رجل تقى جدا لا يفوته فرض، وبعد الوضوء السابغ وغسل ما بين أصابع القدم، والصلاة، ينتهى يوم العمل، والماكينة التى صنعت لتنتج ٣٠٠ قطعة فى اليوم أنتجت عشرا «يا دوبك» وعاوزين حوافز، والحوافز توزع من مال المصنع الغارق فى الخسائر والديون، وتقرير مجلس الإدارة الذى تنشره الصحف يقول إن الشركة تكسب، ولهذا فهو - وزملاؤه - يستحقون الحوافز.

ومطلوب منك أيها المواطن السعيد أن تصدق ذلك، وأن تقرأ أخبار الملايين التى تضيع، وأنت وأولادك تتعشون بثمن جبنة رومى على أنغام التليفزيون، وفى التليفزيون رجل أنيق يردد عبارة فولتير الخالدة فى رواية زديج أو صديق: والأحوال يا جلالة الملك تسير على أحسن ما يرام فى أسعد بلاد الله. وفولتير كتب قصة زديج، ثم هرب إلى بافاريا، لأنهم اعتبروه فى فرنسا مجرما. أما صاحبنا الذى يحدثنا فى التليفزيون فلن يطارده أحد، وهو سينزل بسلامة الله ليجد السيارة المبرى تنتظره.

وسيشكره السيد الوزير فى اليوم التالى. سيشكره باسم مصر التى يحبونها جميعا حب موت، وحب أكل. وحب نهب.. وهذا كله حب على طريقة بلدنا، وفى الماضى كانت هناك عربات عليها كسب أسود بلون الأرض، وكان البائع يصيح حلاوة بلدنا! ومرة أردت أن أذوق حلاوة بلدنا، فاشتريت شيئا، ودارت بى الأرض، وقلت للرجل: هذه حلاوة بلدنا؟ قل زفت بلدنا، قل قطران بلدنا! ورأيت متسولا جالسا القرفصاء فأعطيته كل حلاوة بلدنا. والمسكين أكل الحلاوة كلها، وكنت أتوقع أن يموت، ولكنه ظل صحيحا سليما معافى، وتعجبت، وقلت: من يدرى، فربما كانت هذه حقا حلاوة بلدنا ولا أدرى.

□□□

ولأننا نحب بلدنا، فنحن نأكل كل ما فيها حتى مال المساجد وهو مال الله ومال النبى. وكل الأراضى المحيطة بمساجدنا الكبرى أوقاف مساجد، ولكننا أكلناها كما أكل المتسول حلاوة بلدنا. وكل الأرض المحيطة بالمسجد الأزهر الشريف وقف أوقفه على المسجد مملوكك يسمى عبد الرحمن تخدا، وكان يريد أن تحيط بالمسجد بساتين مثل مساجد استامبول، وفى تركيا يحبون الله على الطريقة التركية، فتركوا أرض الأوقاف بساتين إلى يومنا هذا.. أما نحن فنحب الله سبحانه حبًا مصريًا ، ولهذا فقد أكلنا مال الله وهو مال المسجد، وتاجرنا فيه، ومتر الأرض من مال الأزهر هذا يباع بالشىء الفلانى، وقل مثل ذلك فى أوقاف مساجد قايتباى وبرقوق وقلاوون والسلطان الغورى والإمام الشافعى. كلها أكلناها بالهناء والشفاء، بل إننا احتللنا المساجد نفسها، وأذهب الآن إلى جامع قلاوون تر العجب، فإن الناس لا يسكنون فى المسجد فقط، بل إن أحدهم أنشأ مصنعًا حقيرًا ينتج أنابيب البوتاجاز، وهى تتميز عن غيرها بأنها تنفجر فيمن يشتريها، وعندما ناقشت هذا الرجل، قال:

– يعنى حضرتك عاوز تخرب بيتنا..

– إنه ليس بيتك، إنه بيت الله..

وبكل وقاحة قال:

– من إمتى؟ هذا المصنع ورثته عن أبى!..

وضرب كفا بكف، وهو يقول:

– عاوز يخرب بيتنا، ويقول مال الله وبيت الله! أنت تبعد عنى أحسن لك، ونحن ناس نعرف ربنا..

ويرفع المؤذن الأذان لصلاة العصر، ويتركنى الرجل لكى يصلى العصر عند دخول الوقت كما تأمر السنة، وهذه طريقة بلدنا فى حب الله سبحانه..

والإمام الشافعى، عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علمًا، له مسجد عظيم، والمسجد له وقف واسع يضمن له ميدانًا جميلاً حوله، وأيام كنت صغيرا كنت أذهب للصلاة فى الجامع، وكانت الأرض حوله فضاء، أما اليوم فقد أكلناها وبنينا عليها بيوتًا، والبياعون احتلوا ما بقى من جدران المسجد وحولوه إلى دكاكين عليها لافتات بالنيون لايت، ويقال إن الذى وضع اليد على المسجد وما فيه وما حوله كان شيخا من قدماء شيوخه الأتقياء، ولأنه كان يحب الإمام الشافعى حب موت فقد أكله بلحمه وعظمه ومسجده وأرضه، وبدأ هذا الشيخ عمليته بطريقة عملية، فقد أنشأ مكتبا على الرصيف ليكتب للناس ما يريدون إرساله من شكاوى ومطالب وعرضحالات إلى عالم قريش وفقيه مصر محمد بن إدريس الشافعى. وكتابة الرسالة كانت بخمسة قروش، لأنها موجهة للإمام شخصيًا، وتفتتح عادة بعبارة «حضرة المحترم صاحب الفضيلة الإمام الشافعى رضى الله عنه» أو «إلى صاحب الموكب العظيم الإمام الشافعى» أو «حضرة سيدى صاحب المقام الرفيع ومولاى الإمام الشافعى رضى الله عنه». وهذه الرسائل كانت تسلم بعد كتابتها إلى الشيخ لكى يوصلها إلى الإمام يدًا بيد. وكان الشيخ يلقى بها خلف سياج الضريح لكى يقرأها الإمام، ويحقق مطالب المظلومين والناس كانوا – وما زالوا – يكتبون الرسائل إلى الإمام الشافعى، لأنهم

كانوا يائسون من العدل من أهل الأرض. وقد كتب الدكتور سيد عويس دراسة ممتازة على هذه الرسائل، وشيخ الجامع كان يجمع هذه الرسائل إذا كثرت، ثم يقوم بإحراقها للطبخ عليها فى بيته. ثم انتقل هذا الحق: حق إعدام الرسائل إلى إمام المسجد الذى تعينه وزارة الأوقاف. وقد صرح شيخ الجامع بذلك للدكتور عويس وقال: إن الرسائل تعدم اسبوعيا تحت إشرافى تحريا للأمانة طبعا.

المهم أن شيخ الجامع القديم الذى كان يتقاضى خمسة قروش عن الرسالة، فيعطى الكاتب أو العرضحالجى منها قرشا ويأخذ الباقى، أتم دينه من مال الله والإمام الشافعى، وحج سبع حجات، وتزوج وطلق تسع مرات ووضع يده على أوقاف الجامع، وبنى على بعضها الآخر، وهذا ليس كلام الدكتور عويس، بل كلام ناس كثيرين هناك سألتهم فى الموضوع عندما عملت استطلاعا عن بريد الإمام الشافعى.

وقد اغتنى الشيخ من مال الله ومال الإمام القرشى، ومعظم الأرض مكتوبة إلى الآن باسمه، وبعضها سجل فى الشهر العقارى.. وإذا كان الشيخ لا يخاف الله فهو بالتالى لا يخاف من الإمام الشافعى وبعض الرسائل كانت موجهة ضده هو وأهل بيته، وقد بين الدكتور سيد عويس فى كتابة المتع موضوعات الشكاوى ومن بينها: سرقات عينية - سرقات أموال - هجوم على منزل أو دكان - إتلاف مزروعات - سلب عقار - أخذ أموال يتامى - ضياع أموال - تسميم مواشى - هدم منازل - وكل هذه الجرائم ارتكبها الشيخ المذكور وآله وبنوه.

وبعض هذه الرسائل كانت ترسل بالبريد المسجل، ولا أدرى كيف كان الإمام يتسلمها، ولكن مصر أم العجائب، كما يقولون ومن هذه العجائب أننا لا نستطيع استرداد أرض من سارقها، وفى يوم من الأيام لن نجد ضريح الإمام الشافعى كله. سنكون قد أكلناه وهضمناه على الطريقة المصرية.

□□□

وفى العشرة الأوائل من هذا القرن، كان فى مصر مدير للصحة يسمى الدكتور إدوارد كيتنج، وقد كان ناظرًا لمدرسة الطب، ولم تكن هناك وزارة صحة، وإنما كانت مصلحة تابعة لوزارة الداخلية. والمستر كيتنج طاف بمساجد مصر، وتعجب من أحوالها، لأن الناس كانوا يستعملون دورات المياه فيها أسوأ استعمال، وكان أبى لا يحب الإنجليز، وكان يكره كيتنج بالتالى ولهذا فقد كان المدير الإنجليزى لا يدعه فى القاهرة طويلاً، كان ينقله دائما إلى بلاد الحدود: السويس ودمياط وأسوان والواحات حتى كان والدى يقول: الظاهر أن مستر كيتنج فاكر أننى تابع لسلاح الحدود.

ولكن المستر كيتنج لم يكن بالسوء الذى كان الناس يتصورونه عليه، ففى سنة ١٩١٩م، فيما أظن، اصدر قرارًا بإغلاق المساجد فى كل مدينة أو حى لمدة شهر، لكى يصلح دورات المياه، وكنا أيامها فى حى الجمالية، وكنت صبيًا فى الثامنة، وأغلقوا مساجد الحى، وهدموا كل دورات المياه فيها، وأعادوا بناءها على أحسن صورة تيسرت لهم، وانتهزوا الفرصة، فبيضوا المساجد ورمموها وفرشوها بحصر جديدة، وقد أعطته المال اللازم لذلك أم المحسنين الأميرة أمينة أم الخديو توفيق، ولم يكتف الدكتور كيتنج بذلك بل وضع خطة مجار كاملة لمدينة القاهرة، وكان غرضه الأساسى من وراء ذلك العمل هو ألا تعود المساجد إلى حالتها الأولى بعد ذلك.

ومع ذلك فإن شيخا يسمى عبد السميع السمالوطى. كتب مقالات فى الصحف، وقابل رئيس الوزراء لكى يطلب إليه عزل الدكتور كيتنج الذى اعتدى – فى زعمه – على حرمة الإسلام..

ولم يكن كيتنج فى حاجة إلى من يخرجه من الحكومة، فقد كان حقيقة إنسانا محترمًا، فقد استقال من خدمة الحكومة، وافتتح عيادة فى إحدى قرى مديرية أسيوط، وظل يعالج الناس دون مقابل، حتى مات وكان لا ينفق شيئًا من راتبه الذى قدرته له أم المحسنين، وعندما مات وجدوا

وصية تركها يطالب فيها أن يبنوا بهذا المال مسجداً، وإلى جانبه عيادة صغيرة لإسعاف الفقراء.

ويسمع والدى بالخبر، وكان الدكتور كيتنج قد نقله إلى دمياط قبل استقالته، وأنا أتذكر الآن وجهه، وقد علته الدهشة، وهو يقول لصاحب له يسمى الدكتور عطوة: هل هذا معقول يا دكتور. إن الدكتور كيتنج يحب بلدنا أكثر من الشيخ السمالوطى الذى كان يريد أن تظل مساجدنا فى الحالة السيئة التى كانت عليها؟.

واسمع الدكتور عطوة يقول:

– معقول يا محمود، لأن الشيخ السمالوطى كان يحب مصر على طريقة أهل بلدنا، أما الدكتور كيتنج فكان يحبها على طريقة الخواجات. احنا يا محمود عندما نحب إنسانا فإننا نخنقه بالحب، وسعد زغلول الله يرحمه – ضربوه بالرصاص لأنهم أحبوه، ولكن أحدا لم يضرب مصطفى فهمى ولا إسماعيل صدقى ولا أحمد زيور، لأننا كرهناهم، ويا ويل من نحبه!..

□□□

وهل أحب الناس فى بلدنا وليا كما أحبوا السيد أحمد البدوى.. ذلك الشيخ الشريف المبارك الذى منحه الله الإيمان والصدق والصبر، وجعله يختار بلادنا من دون بلاد الله، واستقر فى طنطا ليعلم الناس معانى التقى والورع والصلاح؟..

وأنا أحب السيد البدوى، لأنه من أعلام تاريخ بلادى، وإن كنت لا أقبل كرامة أو معجزة واحدة مما ينسبها الناس إليه، ومذهبى فى ذلك معروف، وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكرم إنسانا بأكثر مما كرم به رسوله الكريم. ورسولنا ﷺ لم يمش على الماء، ولا انتقل من القاهرة إلى مكة ليصلى العصر ثم يعود ليصلى المغرب فى طنطا، وينام على سطح منزل الشيخ ركن الدين..

ولكن الذين نسبوا إلى السيد البدوى الكرامات هم الذين أحبوه على الطريقة المصرية، قد كان الشيخ شريفًا علويًا من آل الحسين رضى الله عنه، وقد ضرب للناس مثلاً فى الزهد والوقار والعفة تكفى هنا حكايته مع السيدة فاطمة بنت برى التى أرادت إغراءه، فتابت إلى الله على يديه، وأصبحت من الصالحات.

فإن أتباع السيد البدوى جعلوا قدرة السيد البدوى فوق قدرة الله سبحانه وتعالى، فإن الله يهدى الناس إلى الإيمان فيؤمنون، ولكن السيد البدوى يغضب على إنسان فيسلب الإيمان من قلبه فيصبح كافرًا، ثم يستغفره الرجل ويبكى عند قدميه فيرد السيد البدوى إلى الرجل إيمانه فيعود مسلمًا، وهذه الحكاية وأمثالها يحكيها جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فى طبقات الصوفية الكبرى.

بل إن أتباع السيد البدوى الذين أحبوه «حب موت» جعلوا مولده مناسبة لممارسة أسوأ أشكال الرذيلة. وما أقول هذا من عندى، ولكنى أنقل لك سطورا من كتاب ألفه الدكتور أحمد صبحى منصور وهو أستاذ بالجامعة الأزهرية يقول فى ص ٣٢٣ من كتابه عن «السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة»، وهو من أحسن ما قرأت عن ولى طنطا الكبير: لقد أصبح مولد البدوى، والموالد الأحمدية، أكبر بؤرة للفساد فى مصر المملوكية. ولم تمنع مكانة البدوى وخلفائه من الإنكار على ما يقع فى مولده من الإثم والفجور، ولم تكن السلطان المملوكية لتهتم: بما يحدث فى طنطا إلا بعد أن تولى السلطات جقمق (من سلاطين المماليك البرجية) سنة ٨٤٢ هجرية (١٤٣٨م) وقد وصفه ابو المجاسن (أى وصف السلطان واسمه الكامل الظاهر سيف الدين) بأنه كان شديدًا على من يقع فى المنكرات، فكسدت فى عصره سوق أرباب الملاهى والمسكرات. وفى عصر جقمق تزعم الفقهاء العلامة برهان الدين البقاعى، وقام بدور فى إطلاع جقمق على ما يجرى فى مولد البدوى من انحلال خلقى شاع وذاع، وملأ الأسماع، فأصدر جقمق

أمرا بإبطال المولد الأحمدى سنة ٨٥١هـ. وبسبب هذا الحادث تجرأ المؤرخون فأثبتوا ما يقع فى المولد من انحراف. فالسخاوى يقول: إن المولد الأحمدى كانت تتخذ فيه أماكن للفساد فى تلك الأيام لكثرة الجموع، ثم اضطر الصوفية إلى الاعتراف بصحة هذا الكلام.يقول الحلبى عن المولد: وصار له يوم مشهود، ويقصده الناس من النواحى البعيدة. وشهرة هذا المولد فى عصرنا هذا تغنى عن وصفه، وقد قام فى الأمر جماعة من العلماء وممن يتدين، وطالبوا بأبطاله لأمور عرضت فيه، منها وجود النساء الخطايا (أى الخاطئات)، واختلاط بعض الفساق بهن، فلم يتهيأ لهم إبطاله إلى سنة ٨٥١هـ وكان ذلك فى زمن السلطان جقمق وكانوا قد أنهوا إليه أن فى مولد سيدى أحمد البدوى تقع حرمات ومفاسد كثيرة بسبب اختلاط الرجال بالنساء. وقد عرض عبد الصمد لإبطال المولد،وقال إنه أبطل سنة ٨٥٢هـ. ولم يذكر السبب، ثم فصل القول فى موقف من توقف فى الإفتاء بأبطال المولد، كيحيى المناوى الذى قال: أما أنا فلا سبيل إلى أن أكتب على الفتيا بإبطاله أبدا، بل أفتى بمنع المحرمات التى تحضر فيه، ومولانا السلطان يرسل خاصكيا (أىمندوبا خاصا) أو أميرا من جهته يمنع المحرمات التى تحضر فى المولد، ويبقى المولد على حاله.

وأتابع معك كلام الدكتور أحمد صبحى منصور، فى كلامه عن السيد البدوى ومولد السيد البدوى يقول: ويبدو أن الناس فى هذا العصر قد أدمنت الانحراف فى موسم المولد. فلما أبطل المولد فى عام ٨٥١هـ أقاموا مولدا آخر قريبا من طنطا ليمارسوا فيه الإثم. يقول شمس الدين السخاوى: »عندما أبطل الظاهر جقمق مولد البدوى، عمل شخص يسمى رمضان، بناحية محل البرج بالقرب من المحلة الكبرى، المولد، ووقع فيه فساد كبير على العادة« وقد نافس مولد الانبابى فى إمبابة مولد البدوى فى طنطا فى مجال الانحلال الخلقى، ولأنه يقع على مشارف القاهرة فقد حظى باهتمام المؤرخين، خصوصا مولد وسنة ٧٩٠هـ وهى السنة التى توفى فيها

إسماعيل الانبابى خليفة البدوى فى امبابة. ويقول المقريزى عن هذا المولد: «كان فيه من الفساد ما لا يوصف، ووجد فى المزارع ١٥٠ جرة خمر فارغة، سوى ما حكى عن الزنا واللواط» (السلوك ٣/٥٧٦)..

وهذا الفساد فى موالد الأولياء انتشر وساد، حتى أصبحت الموالد كلها مواضع للفسق المشين، وموالد إبراهيم الدسوقى وإسماعيل الانبابى حتى مولد أبى الحجاج يوسف الأقمرى فى الأقصر وعبد الرحيم القنائى فى قنا، أصبحت مناسبات ترتكب فيها أحط أنواع الرذيلة.. وبلغ الأمر بهؤلاء الناس الذين كانوا يحبون المشايخ والأولياء «حب موت» أن أصبح الشيخ نفسه عندهم وسيطا فى مسائل الجنس، واقرأ هذه الحكاية الوقحة التى يحكيها عبد الوهاب الشعرانى عن نفسه، وكان من أكبر المدافعين عن المشايخ والأولياء: «ولما دخلت بزوجتى فاطمة أم عبد الرحمن وهى بكر، مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءنى - أى البدوى - وأخذنى وهى معى، وفرش لى فرشا فوق ركن القبة (فى المسجد الأحمدى) على يسار الداخل، وطبخ لى حلوى، ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها هنا، فكان الأمر فى تلك الليلة.. (الطبقات الكبرى ١/١٦١). ويقول الدكتور صبحى معلقا على ذلك بقوله: واضح أن الشعرانى كأى رجل يواجه هذه المشكلة خمسة شهور، قد جرب كل الوسائل ليثبت رجولته أمام زوجته البكر، ثم كانت أنجح وسيلة »أن يتم «الفتح» عليه فى قبة البدوى بسبب ما كان للقباب (وأضرحة الأولياء) من ايحاء جنسى، وتاريخ طويل فى تلاقى العشاق، ونجحت هذه الطريقة، فصاغها الشعرانى كرامة للبدوى ودعاية لشخصه كتابع أثير ومفضل لدى قطب الأقطاب أعظم أولياء مصر، فادعى أنه أخذه مع أم عبد الرحمن وجهز لها فى قبته الفراش، وطبخ لهما حلوى، ودعاه لمواقعة أم عبد الرحمن، وهنيئا لك يا أم عبد الرحمن، فقد تم اللقاء بعد طول عناء فى قبة سيد الأولياء.. (السيد البدوى للدكتور صبحى ص ٣٢٩)..

وهكذا بهدلنا السيد\ البدوى لأننا أحببناه..

والشيخ عبد الوهاب الشعرانى وهو من أكبر أنصار البدوى، وكان يحبه «حب موت»، جعله وسيطًا جنسيًا يحل له مشكلته مع زوجته فاطمة أم عبد الرحمن..

حب على الطريقة المصرية..

حب موت، حب أكل ، حب بهدلة!..

الآن فقط فهمت المثل العامى المصرى: الحب بهدلة!..

□□□

وقد مر بنا الوقت سريعًا، وبقيت أهم صور الحب ؟ أقصد الحب الـذى هو حب.. ولنا فيه أساليب «تجنن»..

وهذا وغيره حديث طويل «عايز قعدة»..

(١٢)

الغلب عليك.. هو المكتوب يا ولدى*!

أبدأ هذه التقاسيم – أقصد الفصول – بتحية من القلب لأولئك الأعزة الذين عملوا – ويعملون – على تجديد شباب النغم والموسيقى فى بلادنا: محمد عبد الوهاب – صانع النغم الحديث فى تاريخنا الحضارى – أطال الله عمره وزاده فى صحته وعافيته، ود. حسين فوزى الذى فتح لنا الأبواب والنوافذ على عالم النغم الغربى الحافل بكل بديع رائع، وأدخلنا بصبره وطول أناته وجهده فى عالم السيمفونيات والمتتابعات والأوركسترا والكونشيرتو والكورال والسولو، ود. سميحة الخولى التى تواصل هذه الرسالة بأستاذيتها وأصالتها فى قاعات الأكاديمية وفى دروسها التى تلقيها علينا فى التلفاز، والأستاذة رتيبة الحفنى مغنية الأوبرا التى تبعث – بروحها وعلمها وفنها الحياة فى عصر ما قبل سيد درويش وما قبل عبد الوهاب.

وتعود بنا خلال دقائق قليلة كل أسبوع إلى عالم التخت واليشارف والأدوار والربع تون ورمزى يسى عازف البيانو الموهوب الذى تعرفه أوربا كلها، وبقية الذين يعملون على تربية آذاننا وصقل أذواقنا بما يقدمون لنا من نغم غربى جديد أو شرقى مصقول قديم متجدد ويعالجون بهذه الترياقات أسماعنا مما تعانيه صباح مساء من نشاز يضعنا فى أحيان كثيرة خارج نطاق النغم المنسجم أو ما يسمونه فى الألمانية Verstimmung وهم بذلك يعالجوننا بجرعات مضادة للأنغام الضارة anti-vocalics (على وزن anti-biotics وبعد هذه التحية الواجبة أقول: إن هذه تقاسيم أو تنويعات على صور وحقائق وواقعيات من حياتنا التى تزداد فقرًا وبرودة يومًا بعد يوم حتى ليشعر الإنسان منا أحيانا أننا دخلنا منطقة الجليد الدائم فى

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ يولية ١٩٨٤م.

أعقاب المستكشف روالد أموندسن الذى غالـه الموت وهـو فـى الطريـق إلى القطب الجنوبى..

وأعترف مقدمًا أن العنوان العام لهذه التقاسيم مشتق من مصطلح موسيقى متداول بين أهل الفن جعله بعض الموسيقيين عنوانا لبعض مـا صـاغوا من مقطوعات:

variations sur un theme de chez nous

ولابد أن أضيف هنا أن الذى سيقرأه القارئ هنا بعيد جدا عن الموسيقى أو التقاسيم (وأنا أفضل هذا المصطلح على مصطلح تنويعات)، إنما هى صور ومشاهد من حياتنا، وإذا كان لابد أن تكون لها علاقة بالموسيقى فأقرب ما يخطر على بالى منها هو الموسيقى الجنائزية.·وفى أذنى تتردد الآن الأنغام الحزينة التى يختم بـها تشايكوفسكى قطعتـه الشـهيرة: مـوت البجعـة، وتدريجـات crecendos وتدريجـات diminuendos ريتشـارد فـاجنر فـى خواتيم اللوهنجرين أو الفانهويز..

□□□

وأبدأ التقاسيم..

فأقول إننى أصحو على العادة مع تياشير الصبـاح، وكنـت فيمـا مضـى وولى من أيام العافية أسارع بعد صلاة الفجر إلى المكتب لأبـدأ يـوم العمـل، أما الآن – وللسن أحكام – فإننى أعود بعـد الصـلاة إلى الفـراش وأستمتع بمصر وهدوئها وجمالها قبل أن تصحو جيوش مواطنى الأعزاء – حرسـتهم العناية الإلهية وهم فى طريقهم إلى الخمسين مليونا، وصدقنى أيها القارئ أن جمال مصر لا يتجلى لك فى أبهى صورة إلا وأبناؤهـا نيـام، والشـوارع خالية والهدوء شـامل، فـإن كنـت شـاعرًا أو مفكـرا فـهذه سـاعتك، فـإذا استأخرت أجارك الله! تبدأ الحرب والضرب والرقع والفرقعات! والجموع المستيقظة وبها نهم إلى الضوضاء يفوق نهمها إلى الطعام، والجماهير – التى لا عمل لها فى الحقيقة إلا صنع الأطفال فى الليـل – تندفـع فـى حركـة

تخريب هائلة منذ طلوع الصباح هدفها فى النهاية إحراق الأرض فى طريق الأطفال الذين يصنعونهم فى الليل.

وأحس كأن القيامة قامت من حولى لأن كل المواطنين الأعزة يبدأون فى صناعة الضجيج بمجرد الخروج من السبات – والعائلة التى تقيم فوقنا تبدأ يومها بالتسابق إلى الحمام حيث يعسكر السيد رب البيت نصف ساعة أو ساعة يقرأ فيها الأهرام والأخبار والجمهورية فى انتظار جريدة المساء، واولاده الأربعة يطرقون الباب ويتعجلون (سى بابا) بينما الأم العزيزة تضع على المائدة حلة من الفول وصفوفا من الخبز، ثم تجلس لتمسح زورها – حتى تفرغ معركة الحمام – برغيفين عامرين محافظة على مقاييسها الجمالية أو الحيوية.

والأرقام القياسية العالمية للمرأة هى على الترتيب من أعلى إلى أسفل ٩٠ – ٦٥ – ٩٠سنتيمترا ومقاييس صاحبتنا الآن على الترتيب ٢ متر– ٢متر – ٢,٥ متر، فتصبح هيئتها العامة – بما فى ذلك الرأس– هيأة الزلعة أو البلاص وسيادتها موظفة (قد الدنيا – حرفيا – ولكن موكبها الحافل يبدأ بعد أن ينصرف الزوج والأولاد حيث تتهادى إلى المكتب حاملة خضار الغذاء لتقوم بتقشيره وإعداده فى المكتب محتجبة عن أعين الناس مستورة والحمد لله بين أكوام من ملفات حاجات الناس المعطلة منذ شهور وربما أعوام، وأجلس فى السيارة فى طريقى إلى العمل، وعلى خمسين مترا من ملتقى طرق نتوقف فى انتظار إشارة رجال المرور بالإفراج عنا إلى يمينى ويسارى وأمامى وخلفى علب الصفيح يملؤها الناس إلى جانبى سيارة نصف نقل يجلس إلى عجلة قيادتها سائق منسجم إنه يشعل سيجارة ليزداد انسجامًا فقد فتح راديو السيارة على آخره، ومضى يشنف أذنيه بأغنية:

يا أسمر يا جميل يا عليوة..

يا أمير يا عين أمك يا حليوة..

غنى لى يا حبيبى غنيوة..

وأضيق بهذا النغم ذرعا، فأشير إليه، والرجل الظريف الطيب القلب يفهم ويقفل الراديو ويقفز إلى الأرض ويقترب منى ويقول: ولا مؤاخذة يا سعادة البيه، بنسلى الانتظار، ماذا نعمل؟ طول النهار ونحن على هذا الحال نخرج من زنقة لندخل فى زقاق..

وأقول له: متشكر!..

– محسوبك نبيل السيد أبو سريع الشهير ببلبل ..

– متشكر يا أخ نبيل..

– ولماذا هذا التكليف؟ كفاية بلبل!..

– متشكر يا بلبل..

– إذا كانت هذه الغنوة لا تعجبك أغيرها ولا مؤاخذة عندى هنا ترسانة كاسيت.. تحب أدور لك كرآن..

– يا بلبل وهل هذا مكان يليق بالقرآن؟ القرآن يحتاج إلى هدوء وراحة نفس وخشوع..

ويضيق ذرعه بى فيقول وهو يهز يديه..

وماذا أعمل لك.. لا عليوه يعجبك ولا الكرآن تسمح به..

لا عليك يا بلبل ولا تؤاخذنى، أنت ترى جهنم التى نحن فيها والغازات السامة تخنقنا..

وبعد دقائق من الصبر عاد بلبل يقول:

– إذن فعندى شريط كاسيت يعجبك تماما. ولا مؤاخذة يابيه أصل الواحد لازم يفرج عن نفسه إنه أغنية لمطربة الموسم (أحلام الغلبان) ألم تسمع بها؟ الكاسيت ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف..

فى خفة الغزال قفز إلى سيارته وأدار الكاسيت: تعاليلى تعالى يا نفوسة..

محروسة م العين يا عروسة..

طعمك بقلاوة وبسبوسة..

– يا بلبل يا صديقى. هل هذا وقت البقلاوة والبسبوسة؟..

– إذن ماذا أعمل لك يا بيه، غلبتنى..

وكانت السيارات قد زحفت بنا إلى حيث نستطيع رؤية رجال المرور. ورجل المرور كان يتحدث إلى صديق له، وينصرف الصديق وصاحبنا يعطينا ظهره وأنفه فى السماء، وأصابعه تعبث فيها ويقول بلبل:

– تفتكر يا بيه.. بيدور على إيه؟..

– على مراكب الشمس؟ لا مؤاخذة.. مراكب القمر! لأن مراكب الشمس كشفها من سنوات صديقنا المرحوم كمال الملاخ ويقول بلبل:

– مراكب إيه..

ولم ينتظر إجابتى فإن رجل المرور أفرج عنا وانفتحت أبواب الجنة، وبلبل قفز إلى النصف نقل وفى لمحة كان قد طار واختفى بسيارته وعليوة والبقلاوة والبسبوسة..

□□□

وخطوة خطوة نصل إلى ميدان التحرير. هنا سور الصين العظيم أو حاجز يأجوج ومأجوج، أصبحنا فى بحر من علب الصفيح يتصاعد منها الغاز إلى يسارنا وعلى بعد سيارتين حاجز النفق. هنا ينشئون مترو الأنفاق، وهناك حاجز هائل مخطط أبيض وأحمر يحجب عنك كل شىء ترى ماذا يصنعون هنا تحت الأرض؟ هنا يقولون إنهم يفتحون طريقًا إلى الجنة، ولكننا قطعًا سنصل إلى الجنة – إن شاء الله – قبل أن ينجز النفق. وفجأة ألمح سيارة

بلبل علـى البعد والرجل الطيب يقفز إلى الأرض ويقبل نحوى مشوقًا مبتهجا، فقد أصبحنا زميلين فى التعاسة – وأقول له:

– إذن فأنت رغم مهارتك لم تفلت منهم:

– عيب يا بيه.. لقد أنتهزت الفرصة وخطفت طبق كشرى يعجبك! أجيب لك واحد؟ إن الرجل هناك وراء الشمس..

– لا يا بلبل.. دور لنا عليوة..

– ما قلنا كده، قلتم اطلعوا من البلد..

والرجل الطيب اقترب منى لا أدرى كيف – بنصف النقل، وأدار سى عليوة..

ثم قال: سآتيك بطبق كشرى بالدقة دى لهاليب يا محترم..

ويختفى قبل أن أرجوه أن يتريث، وأضع رأسى على كفى وأنتظر ما سيحدث لى من الكشرى والدقة واللهاليب. ومن بعيد تترامى إلى أذنى أنغام أغنية أعرفها..

الغالب عليك هو المكتوب.. يا ولدى!..

وصاحبى الذى يقود السيارة بى يترفق بحالى ويقول: إنزل أنت هنا لتدرك حاجتك وسأبحث عن مكان «أركن»، فيه. وستجدنى فى انتظارك هنا فى حوش المجمع ولا معنى لأن أصعد معك تسعة أدوار..

اما أنا فأصعدها، لأن المصاعد معطلة، وبعد تسع دورات كاملة على سلم أكلته للأقدام حتى أصبح رخامة أرق من أحجار مداخل أهرامات الجيزة أصل فى النهاية إلى المكتب الذى أريد. وأجد الباب مقفلا وعليه فراش كأنه مالك خازن النار ويقول لى: ممنوع يا أفندم..

– ليه يا سيدى؟ خير إن شاء الله! هل السيد المدير غير موجود..

– إنها سيدة مديرة ولا مؤاخذة وهى لا تستقبل الجمهور إلا بعد الثانية عشرة، إنها منذ وصولها بالسلامة إلى الظهر تصرف شئونها الداخلية..

وأنظر فى ساعتى وأقول: لا بأس..! بقيت عشرون دقيقة، والفراش يرق لحالى ويحضر لى كرسيا وأنا بحاجة إلى كرسى بعد تسلق هرم خوفو، ويجلس الرجل إلى جوارى ويعرض على سيجارة وأعتذر له بأننى لا أدخن فيسعده ذلك، ويجمعنا «الغلب» وتزول الكلفة بيننا ويقول:

– أصل السيدة المديرة – الحاجة المديرة أقصد – تنجز شئون المطبخ هنا، وعندها حق فهى تنصرف الساعة ٢ بعد الظهر، وتصل إلى بيتها الساعة الثالثة فلابد أن يكون كل شىء معها جاهزا للوضع على النار، وسيادتها متزوجة وعندها ولدان فى الجامعة وبنت فى الثانوية العامة وبنت مطلقة ومعها – باسم الله ما شاء الله – ولد وبنت..

– وما علاقة هذه العائلة الكبيرة بالعمل هنا؟..

– قصدى – والكلام بينى وبينك، فقد انفتح لك قلبى، وسيادتك تبدو لى كأنك كنت مستشارا..

– مستشار أو قاض يا عم..

– غنيم محسوبك، سيد غنيم أبو الروس فراش مكتب الحاجة المديرة ورئيس سعاة الدور التاسع. يسموننى المارشال، المارشال غنيم! ثم ضحك وقال: الله يجازيه الدكتور فتحى هو الذى أعطانى هذا اللقب. والدكتور فتحى والله يا سعادة المستشار كان هنا حتة موظف للشئون القانونية لا يساوى ثلاثة تعريفة، ولكنه الآن – عقبال عندك – شركات وعمارات وسيارات..

– وما الذى غير حاله؟..

– دخل السياسة ورشح نفسه للمجلس – الكلام من عشر سنوات، لا.. من خمس عشرة سنة، أصبح نائبا قد الدنيا ودخل فى شركة مع واحد من

الكبار وتزوج ابنته وطلق الغلبانة أم العيال وانفتحت له الأبواب، كل يوم شركة وكل يوم مكتب تصدير واستيراد جديد ودخل فى شركة مع شوكت عرفات..

– ومن شوكت عرفات؟..

– يا سعادة المستشار أنت تعرفه.. إنه أشهر من نار على علم، إنه بتاع المائة وخمسين مليونا الذين أنشأوا من أجله هو وأولاده دائرة محكمة خاصة، وفى الآخر طلعوا كلهم هو وأولاده وأزواج بناته براءة..

وأنظر فى ساعة وأقول:

– طيب تسمح يا مارشال غنيم تشوف لى الست الحاجة المديرة..

فنظر إلى الباب وقال: هانت.. كلها دقائق.. ثم ينظر إلى السقف كأنه يبحث فى ذهنه عن شىء ثم يقول:

– لا يابيه.. أمامك على الأقل لسه نصف ساعة..

– ولماذا يا مارشال؟..

– لأن اليوم ولا مؤاخذة – عندهم محشى..

– محشى؟ وما دخل المحشى هنا..

– قصدى يا سيدى المستشار إنهم فى بيت الحاجة المديرة يأكلون يوم الثلاث «محشى»، وسيادتها تأتى إلى هنا بالكوسة والطماطم والفلفل والباذنجان الأبيض أو الأسود والرز واللحم المفروم والبهارات وكل حاجة..

– وكل هذا تعده هنا..

– أمال يا سعادة المستشار: كل العاملين معها فى الإدارة مشغولون اليوم بالمحشى: ست سناء والأستاذة ماجدة والأستاذ حسنى..

– وما دخل الأستاذ حسنى هنا..

– إنه المستشار القانونى الذى حل محل الدكتور فتحى وهو »مش قد كده فى القانون لكنه أستاذ فى المطبخ والشهادة لله ده أحسن واحد فى القطر المصرى يعمل خلطة المحشى. إنه يعملها فى بيته، ويأتى إلى المكتب بها جاهزة والحاجة المديرة.. والست سناء تعدان الكوسة والفلفل والباذنجان وتقومان بالحشو أما الأستاذة ماجدة فهى أحسن واحدة تعمل الصلصة للدمعة! وبعد أن تتم عملية الحشو يجئ دورى أنا وهو رص المحشى الجاهز على الطبخ فى العلب..

– أى علب يا مازشال؟..

– علب الجزم يا بيه، لأن أخى الأسطى حنفى غنيم أبو الروس عنده – ولا مؤاخذة – مصنع علب كرتون للجزم فى باب الشعرية، وانا المكلف بإحضار العلب فى أيام المحشى المشكل أو ورق العنب فى الصيف، والست الحاجة المديرة تطلب منى سبع علب أو ثمانى بحسب ما تريد وهذا شىء معروف من سنين، وهم فى بيت الحاجة المديرة يعرفون أن كل يوم تلات الأكل جزم، قصدى علب جزم، قصدى محشى. وبينما تكون الست الحاجة المديرة قد أمرت بفتح الباب للجمهور يبدأ عملى فى المطبخ – أقصد حمام الإدارة – فأقوم برص المحشى فى العلب: ثلاث علب كوسة، وعلبتان باذنجان، واثنتان فلفل، وفى أثناء ذلك تكون الأستاذة ماجدة قد أعدت الصلصة: عصرت الطماطم ووضعت فيها البهارات ثم تقوم بتعبئتها..

– فى علبة جزمة أيضًا ؟

– لا يا سعادة المستشار، وهل هذا ممكن؟ تعبئتها فى زجاجتى مياه معدنية بلاستيك سعة لتر ونصف للواحدة، والست المديرة بعد ذلك تدخل وتتشطف وتتوضأ وتصلى الظهر حاضرا وبعد ذلك تستقبل الجمهور..

– ثم ينظر إلى الباب وقال وهو يبتسم:

– الحمد لله.. الآن جاء دورى لأدخل المطبخ أنا والأستاذة ماجدة وسأسمح لك بالدخول لأنك رجل طيب، فتجلس على الكرسى أمام الست الحاجة المديرة حتى إذا فرغت من الصلاة نظرت فى أمرك، وهذا الإجراء استثنائى من أجلك والله العظيم لأن يوم الثلاثاء – يوم المحشى.. الست الحاجة المديرة لا تستقبل الجمهور..

وسألت الله صبر أيوب، ودخلت وجلست حيث أمرنى المارشال غنيم أبو الروس، وبعد قليل أتت الست الحاجة المديرة وهى تسبح، وتستغفر بعد الصلاة فإذا بها ← تصور المفاجأة – الست زلعة أو الست بلاص التى ذكرتها لك فى أول هذا الكلام وتجلس وتقول:

– أهل وسهلا.. أظن أننى سبق أن رأيت هذا الوجه إنك لا تبدو غريبا على..

– يا ست الحاجة أظن أننا جيران.. إننى أقيم فى الشقة أسفل شقتكم..

– صحيح صحيح والدنيا تغيرت ولم يعد فيها خير، والجار لم يعد يعرف جاره.. فكل إنسان غرقان فى متاعبه..

– إذن يا سيدتى المديرة إن لى عندكم استمارة..

– لا ، لا.. اليوم لا أنظر فى استمارات صرف، وأنا فى العادة لا أستقبل الجمهور يوم الثلاثاء، وأنا لا أعمل استثناءات لأقاربى أو جيرانى، نحن ناس نصلى ونصوم ونعرف ربنا..

– عارف يا ست الحاجة.. أصل يوم الثلاثاء يوم المحشى..

– فنظرت إلى طويلا وقالت:

– محشى؟.

فاستدركت أقول: قصدى عندنا فى البيت لا تؤاخذينى! هذه هى بيانات الاستمارة.. ووضعت أمامها ورقة كنت أعددتها بالبيانات..

فتناولتها بأطراف أصابعها ووضعت النظارة على عينيها ونظرت فيها ثم رفعت رأسها إلى وقالت: من هذه البيانات أفهم أن هذه الاستمارة لم ترسل إلى مكتبنا إلا من شهرين ولا اظن أنها وصلت، آسفة يا أستاذ تأتى بعد شهر..

ولكن يا سيدتى بعد هذا العناء..

فقالت وكأنها لم تسمعنى:

– ثم إن الأستاذة ماجدة التى تقوم بفحص الاستمارات ومراجعتها ليست هنا الآن لقد أرسلتها فى مهمة..

ومرة أخرى خاننى لسانى فقلت:

– أعرف يا سيدتى إنها الآن..

– ماذا تعرف؟..

لا شىء لا شىء؟..

– إذن تعود بعد شهر..

يا سيدتى نحن جيران..

أنا لا أعرف الوسائط ولا الشفاعات ولا الجيران فى الشغل، أنا واحدة حاجة ثلاث مرات وقضيت أربع عمرات وأعرف ربنا كويس، ومع ذلك – ونظرا لسنك فقط – سأقول للأستاذة ماجدة أن تعد لك استمارتك تأتينا إن شاء الله الثلاثاء القادم..

ولا مؤاخذة يا ست الحاجة المديرة بلاش يوم الثلاثاء ده أصله يوم الـ.. وللمرة الثالثة كاد لسانى يطب، وقلت هل أستطيع أن آتى الأربعاء مثل غد؟ فقالت: تستطيع! على أى حال استمارتك ستكون جاهزة من يوم الثلاثاء..

ونهضت وكانت الساعة الواحدة وهبطت السلم تسع دورات حتى وصلت إلى القاع وكأنه قاع الجب الذى القوا فيه سيدنا يوسف كان مظلمًا قليل الهواء لكثرة الناس فهذا موعد الانصراف يقترب، ووقفت على باب

المجمع أدور ببصرى باحثًا عن سيارة صديقى الذى لابد أن يكون قد تفحم تحت هذه الشمس الحارقة. وحمدت الله فقد رأيته بعيدًا جدًا يستظل بشجرة وأشار إلى أن أنتظر حتى يأتى بالسيارة..

ودار رأسى وأنا أبحث عن مكان أريح عليه جسدى المكدود، وترامى إلى من بعيد صوت المغنى يشدو.. والغلب عليك هو المكتوب.. يا ولدى..

وحتى يأتى صديقى المعذب معى ويخترق بسيارته ذلك الحشد الهائل من علب الصفيح والحديد الملتهب فرشت منديلا على السلم وجلست أستروح نسمة حائرة وإلى جوارى وقف عدد من الموظفين يتجادلون بصوت مرتفع. وهذه هى الطريقة المصرية فى التفاهم، وفهمت أنهم يتفقون فيما بينهم على تفاصيل رحلة سيقومون بها غدا إلى طنطا لزيارة السيد البدوى، وقد أخذوا إجازة يوم غد واتفقوا مع سيارة أوتوبيس وهم الآن فى انتظار رئيس الرحلة الذى ذهب ليثبت الاتفاق ويضبط الميعاد مع شركة السياحة صاحبة الأوتوبيس ويلتفت إلى الرجل يريد محادثتى ثم يقول معتذرا ولا مؤاخذة حسبتك الأخ منسى.. الأستاذ منسى مساعدى فى تنظيم الرحلة أى رحلة..

– إذا كنت تبحث عن الأخ منسى فأنا منسى جدا وعز الطلب..

– فمضى هذه رحلة خاصة رتبناها ودفعنا اشتراكاتها لزيارة السيد البدوى لكى نسأله أن يتدخل ويتشفع فى قضاء حاجاتنا المعطلة والمساكين فى هذا البلد ليس لهم إلا السيد.. إنت زرت السيد البدوى طبعا..؟..

لا لم أزره، لأنه لا يوجد رجل يسمى السيد أحمد البدوى..

– سبحان الله يا أستاذ وهذا الجامع الأحمدى العظيم ماذا فيه..

– الجامع الأحمدى موجود، هذا صحيح، ولكن المشكلة هى أننا لا نعرف إن بداخله شيخ يسمى السيد أحمد البدوى..

فنظر إلى بكل ازدراء وقال عيب عليك يا أستاذ.. هكذا تقول بكل بساطة وأنت جالس على بلاط السلم..

ماذا فى ذلك ألستم تقولون إن السيد البدوى إن كان قد وجد كان يعيش وينام على السطوح ولهذا تسمى طريقته بالسطوحية!..

فقال كل هذا العالم يعرف السيد البدوى ويزور السيد البدوى ويتوسل بالسيد البدوى، وحضرتك تقول إنه غير موجود، أنا يا سيدى أحدثك بلغة التاريخ، فإنهم يقولون إن السيد أحمد البدوى توفى سنة ٦٣٠هـ، وها هى ذى تراجم أهل القرن السابع لا نجد فيها ذكرا للسيد البدوى مع أنه معاصر للكثيرين ممن نعرف، وممن وردت تراجمهم فى كتب المقريزى وابن حجر، فهذا عصر تقى الدين ابن دقيق العيد وعز الدين بن عبد السلام ومحيى الدين النووى وكلهم مذكورون فى الكتب إلا صاحبنا السيد البدوى، بل هذا عصر كبار الصوفية من أمثال أبى الحسن الشاذلى وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وسيدنا القطب الغوث أبى مدين شعيب التلمسانى وإبراهيم الدسوقى وخضر العدوى وكلهم مذكورون فى كتب التراجم إلا السيد البدوى، فإننا لا نسمع عنه إلا فى القرن التاسع الهجرى أى بعد ذلك بقرنين من الزمان، وأول من ذكره جلال الدين السيوطى وهو من هذه الناحية غير مدقق، وهو مع ذلك لم يذكر السيد البدوى، ولكنه ذكر مولد السيد البدوى، وما كان يحدث فيه من مباخر، والسلطان المملوكى جمقمق اضطر إلى إلغاء مولد السيد البدوى سنة ٨٥٢ هجرية لتلافى ما كان الناس يرتكبونه من المعاصى فى المولد، ولكن السيدة حرم السلطان جمقمق زعمت أنها رأت السيد البدوى، فألحت على زوجها فى إعادة المولد، والفقيه الجليل ابن تيمية أنكر حكاية السيد البدوى واحتج على مولده حرصا على الدين، هاجمه المنتفعون بالمولد..

طيب إيه رأيك يا أستاذ يا مؤرخ إننى قرأت بعينى سيرة السيد أحمد البدوى فى طبقات الصوفية الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعرانى لأننى وأسرتى أحمديون، ووالدى رحمه الله كان شيخ زاوية من الزوايا الأحمدية..

وماذا قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن السيد البدوى قال إنه كان يمشى على الماء ويصلى الظهر فى طنطا والعصر فى مكة والمغرب فى المدينة المنورة وهناك كان يلتقى بالشيخ الراجكونى القادم من الهند، وبعد صلاة المغرب يعود كل منهم إلى بلده ليصلى العشاء فيها:

بالطائرة؟ تقصد أنهم كانوا يعودون بالطائرات؟..

– لا يا سيدى هؤلاء كانوا من أهل الخطوة أى أن الواحد منهم ينوى الذهاب إلى بلد ما، مثل مكة فيقرأ التعازيم والأوراد ثم يخطو خطوة فإذا هو فى مكة..

– هل رأيت فى حياتك رجلا من أهل الخطوة هؤلاء؟..

لا.. هؤلاء أهل زمان. أيام البركة والإيمان. كانوا مع الله ولهذا كان الله معهم، والواحد منهم كان يقول أطعمنا يا كريم: فإذا أمامه مائدة عليها كل ما لذ وطاب..

هل أنت متعلم..

سبحان الله. ليسانس حقوق سنة ١٩٦٧م..

لازم دور سبتمبر ....

أجل من قال لك..

لا أحد، ولكنك تخرجت فى خريف النكبة، وكل شىء كان ممكنا إذ ذاك، وجيش مصرى كامل تبخر فى يوم واحد.. هو يوم ٥ يونيو قبل تخرجك بثلاثة شهور..

وانصرف الرجل عنى.. وصديقى نجح فى الاقتراب وهذا هو يشير إلى من بعيد وأنا أنهض وأقول فى نفسى ماذا أفعل لكم يا أهل بلدى يا أعز الناس على.. ويامن أنفقت العمر بينهم أعلم وأفهم، ومن بعيد يترامى إلى سمعى صوت المنشد يقول والجهل عليك هو المكتوب.. يا بلدى!..

(١٣)

نحن لا نحب الفزدق*

بعد صبر طويل مرير وغير جميل رصفوا لنا شارعنا وشارعين ثلاثة حوله. رصفوها على طريقتهم من اللكلكة والهرجلة وثقل الظل وخفة العقل مع العنصر الذى لا يمكن أن يخلو منه أى عمل من أعمالهم، وهو اللذة فى حرق أعصاب الناس: يجيئون يوما عند المغيب ويطوف مناديهم بعربة فيها لعبة اشتروها ليتسلى بها اسمها الميكرفون، وينادى الناس يأمرهم برفع السيارات من الشوارع لأن الرصف قادم الليلة ولا ريب فيه، ويتسارع الناس ويرفعون سياراتهم ويكدسونها فى الشوارع الجانبية، وسيارة الميكرفون هذه لعبة لطيفة وطريفة، ففى أثناء النداء والتنبيه يحشر المنادى موضوعا شخصيا فيقول: يا إبراهيم، وحياة أبوك هات لى معاك سندويتش بسطرمة وعلبة كيلوباترة، وبعد ساعة تصبح عربة الميكروفون عربتين: واحدة تنادى والثانية تكاكى، ثم تأتى سيارات ذات مصابيح كشافة مسلطة على الأرض. وحوالى التاسعة مساء يكون الشارع قد خلا إلا من السيارات المارة، والميكروفونات تصيح والأنوار تضوى، ونأوى إلى فرشنا ونحن نمنى النفس بشوارع مسفلتة ناعمة كالحرير، وأرصفة آمنة مبسوطة دون مقالب أو مطبات ونصحو من الغد ونتسارع إلى الشبابيك لنملأ عيوننا من شوارع الأحلام، فلا نجد أصحابنا قد صنعوا شيئا، فهذه شوارعنا كما هى، وسياراتهم ذات مكبرات الصوت والأضواء الكاشفة قد ذهبت، والمسألة كلها كانت دعابة، وبعد أيام، ودون إخطار، والسيارات رابضة على جوانب الشارع وجاثمة فوق الأرصفة يأتون بعد العاشرة ليلا بقاذفات الأسفلت والسيارات ذات الأضواء وخمسون كوماندة على رأسهم باشمهندس يتصايحون، ويصبون الاسفلت على الأرض تاركين مواضع السيارات كما هى، وخلف قاذفات الأسفلت تسير عربة ضخمة تنطلق منها خراطيم زفت

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ مايو ١٩٨٥م.

يمسك بها رجال ويصبون منها على الأرض فى المواضع التى خلفتها القاذفات الكبيرة، وواحد منهم يمسك بخرطوم الزفت فى يد وساندويتش بسطرمة فى اليد الأخرى، ويصب صبة ثم يقضم قضمة. ثم يضع الخرطوم على الأرض ويخرج علبة السجائر ويضع واحدة منها فى منقاره، ويمضى هكذا يصب القار ويأكل الساندويتش-ويشرب السجاير.

ومهما يكن الذى لكلكوه فقد أصبح لدينا جزء من نهر الشارع مسفلتا وفرحنا به وخفنا أن نبدى أى ملاحظة خشية أن يعودوا فيأخذوا الأسفلت الذى وضعوه.

وأعجبتهم طاعتنا وحسن امتثالنا، فعادوا بعد أيام لينشئوا لنا رصيفا جديدا. والذى حدث أن نفرا من العمال مروا بالفئوس فحطموا الرصيف البالى، وكوموا الحطام تلالاً رهيبة، ثم مرت حافلات مهولة فألقت صفوفًا من مستطيلات الأسمنت التى ستصبح كرانيش الرصيف أو أفاريزه، ثم مر رجال ببذلات صفراء نصف مبهدلة، والواحد منهم يسمى الباشمهندس، وخلفه عدد من العيال، وهؤلاء العيال صبوا فى موضع الرصيف رملاً كثيرًا ثم ماء وجيرا فيما أظن، ثم أتت عربات تحمل بلاط الرصيف أحمر وأصفر والعيال رصوا البلاط: واحدة حمراء وأخرى صفراء، ثم أتى رجال فصفوا مكعبات الأسمنت إفريزا ارتفاعه ثلاثون سنتيمترا، وبعد أيام انتهى ذلك كله، ومرت حافلات أخذت الأسفلت القديم وتركت بقايا مكعبات الأسمنت ومضت وانتهت العملية، وكل واحد من أولئك العيال يأخذ خمسة جنيهات فى الوردية، وهو يتبعها بوردية ثانية فيكون دخله فى اليوم والليلة عشرة جنيهات، هى فى الشهر ثلاثمائة جنيه.

المهم: أصبح لدينا رصيف تكنيكولور محترم نستطيع أن نسير عليه ونصون أنفسنا من أخطار السير فى نهر الشارع، ونحن يا سيدى ناس أهل قناعة ورضا بالقليل، وقد علمنا الغلب الرضا والسكوت والصبر والأدب

الغزير. وأصبحنا نسير على أرصفتنا تلك سعداء راضين، والواحد منا يقول لنفسه: أيها النبى آدم الناكر للجميل، يا من لا تستحق الرصيف أو الرغيف! أحمد ربك وقبل يدك وجها لظهر وادع للباشمهندس بطول العمر والرخاء ولعياله بوفرة السجائر والشطائر والبركات.

ولكن يبدو يا أخى أن تأدبنا البالغ معهم وسكوتنا عن عيوب هذه الأشياء التى تساهلنا فاعتبرناها رصفا، أطمعهم فينا فقرروا حرماننا منها.. استكثروها علينا لأننا لم نتهذب معهم إلى الحد الذى يرضيهم. فصحونا ذات يوم فإذا كل رصيف قد تغطى بدكان عجيب من الخشب والبلاستيك والفورمايكا والحديد المشغول والزجاج. الدكان الواحد يشغل الرصيف كله ويمتد مسافة تتراوح بين عشرة أمتار وخمسة عشر، وكلها برتقالية لونها بلون أنبوبة البوتاجاز، وقد نشروها على أرصفتنا نشرا حتى لم تبق لنا أرصفة، وقالوا: هذه مجمعات استهلاكية رصيفية مستقبلية لا ينعم بمثلها حتى أهل أمريكا، ومن ميزاتها الكبرى أنك إذا أردت الشراء منها فلابد لك من الوقوف تحت الرصيف فى المسافة الصغيرة بين السيارات الرابضة والرصيف الرفيع الذرا، وتمر أمام الاقسام وأنت لا تدرى ما عسى أن يصيب ظهرك، والبائع ينظر إليك من أعلى كأنه مستشار على منصة القضاء، ومدير هذا المجمع ينظر إليك فى خيلاء ويقول: كل الأقسام عندنا.. هذا قسم الخضار، وهذا قسم الفاكهة، وهنا الألبان والأجبان والأزباد (جمع زبد) والأسمان (جمع سمن)، وهنا المربات والمخللات ، هنا اللحم وهناك السمك ، وتلك هى المعلبات: سردين وتونة وبلوبيف لحم بقرى.. صناعة مصرة مائة فى المائة، كله يا سيدى «ميد إن ايجبت».

وأقول له: أى نعمة يا سيدى تتفضلون بها علينا. وأى منه تطوقون بها رقابنا المسمسمة! سألتك بالله ألا حملت أخلص تحايانا وأصدق تشكراتنا لسيدك وزير التموين والتجارة الداخلية والخارجية والعلوية والسفلية إذا

شئت، فهو والله يستحق ذلك كله واكثر، وتفضل يا سيدى وأعطنى كيلو من اللحم البتلو الخالص (ميد إن ايجبت).

– هذا بكرة!

– إذن فكيلو من السمك.

– هذا بعد بكرة!

– إذن فكيلو من الدقيق.

– ما فيش دقيق.

– إذن فكيلو سكر.

– ما فيش سكر.

– إذن فزجاجة زيت.

– ما فيش زيت.

– لا دقيق ولا لحم ولا سمك ولا زيت ولا سكر، فماذا لديكم إذن؟

– أنظر، هذا لبن طويل العمر.

– بكم اللتر؟

– بسبعين قرشا.

– هكذا هو عند البقال.

– ولكنه عندنا شيء آخر.

– هذا واضح، فهو عند البقال محفوظ فى مكان مصون، لأن الرجل يحافظ على ماله، أما عندكم فأنتم قطاع عام، ومال القطاع العام ملك الشيطان، وهذا هو اللبن عندكم موضوع فى الشمس من صباح ربنا، والعلبة التى تتلف ترمى فى الزبالة ولا شيء يهم. وهذا هو البيض عندكم فى الشمس ولابد أنه استوى، ولبن الزبادى تحول إلى حامض لبنيك، والجبن القريش تحول إلى حامض كلوردريك، وأنتم موظفو حكومة وأين من

يستطيع أن يقول لموظف الحكومة بم، والزبدة يا سيدى ساحت وناحت وتحولت إلى شحم ماكينات.

– ولكنك يا سيدى لم تر قسم الحلويات والمكسرات الذى افتتحناه استعدادا لشهر رمضان. هنا يا سيدى شوكولاتات وملبسات ولولى بوبات وفول سودانى وارد مزارع الصديق العزيز مستر جيمى كارتر فى أمريكا اسمه روست بيناتس، ولوز وجوز وزبيب وقمر الدين وفزدق، لقد تعاقدنا على فزدق تركى ويونانى بخمسة ملايين من الجنيهات، تستطيعون أن تأكلوا الفزدق وتشربوا الفزدق وتستحموا بالفزدق إذا شئتم.

فقاطعته قائلا: ومن قال لكم يا أخى إننا فى حاجة إلى الفزدق؟

وقال رجل طويل اللسان: لا أحد طلبه منهم، ولكن عمولته عالية.

وقال البائع: وهل أحد يكره الفزدق؟

قلت: إن الذى يطلب الدقيق ولا يجده يكره الفزدق. وفيم ينفعنا البندق والفزدق إذا لم يكن لدينا الدقيق أو السكر؟. نحن يا سيدى ناس جادون مرهقون نطلب الضرورى، وأنتم ناس مدللون تبحثون عن الكمالى.. بسببكم يا سيدى كرهنا الفزدق، وكل ما هو جميل فى الحياة، وكل هذا الدكان العجيب لم نكن بحاجة إليه لأننا فى أشد حاجة إلى الرصيف منا إلى الفزدق أو اللولى بوب أو البيناتس الأمريكانى المحمص.. خذوا الفزدق وأعطونا الدقيق. وقولوا للجان الشراء والتعاقد التى تقوم برحلات ترفيهية على حسابنا: إننا لا نحب الفزدق.

وفى استطلاع تليفزيونى عن التقدم الهائل الذى تحقق فى ميدان التليفونات مازالت فى أذنى كلمات موظفة لا أدرى فى أى سنترال هى.. تقول: لقد أدخلنا التليفون السوبر أوتوماتيك والابسوفون وتليفون الفولو أب، والأول يطلب بدلا منك النمرة مرة بعد أخرى حتى يحصل عليها لك وأنت جالس مستريح، والثانى يسجل لك المكالمات التى تأتى وأنت

غائب، وعندما تعود وترفع السماعة يكرر عليك المكالمات والرسالات، أما الثالث فإنك تسجل على الآلة المكان الذى ستذهب إليه، فإذا أتت مكالمة بعد خروجك تحولت تلقائيا إلى الرقم الذى أنت فيه، وإذا طلبك أحد على رقم منزلك ولم يجدك تحولت المكالمة رأسًا إلى تليفون سيارتك، فإذا لم تجدك انتقلت إلى تليفون مكتبك. وسرنى هذا التقدم العظيم الذى أحرزته بلادى. وأردت أن استعلم عن رقم طبيب أريده، فبحثت فى دفتر التليفون - آخر طبعه - عن رقم استعلامات الدليل، فلم أجده إلا بشق النفس فى ذيل إحدى الصفحات، وبهذه المناسبة أنصح هيئة التليفونات بأن تتقدم بدليلها هذا إلى مسابقة أسوأ دليل تليفونات فى العالم، فإن الأخطاء فيه تصل إلى حد الابداع والاعجاز، والخطأ يبدأ فيه من الغلاف، فإن هذا الغلاف يقول لك: الجزء الأول من حرف أ إلى حرف س، والجزء الثانى أيضا يسمى الجزء الأول من حرف ش إلى حرف ل، والجزء الثالث لم نحصل عليه بعد. وعندما سألنا عنه قيل لنا: لا تتعب نفسك وراء هذا الجزء لأننا سنبدل كل أرقام القاهرة فى الصيف القادم، لأن تليفونات القاهرة ستصبح ذات أرقام سبعة مثل البلاد المتقدمة جدا مثل جدة والرياض والكويت.

ورآنى صديق فى حيرة، فتناول الجزء الأول، ودلنى على رقم استعلامات الدليل وهو ١٤١ و ١٤٢، ورقمين آخرين، وجلست ساعة أتوسل إلى واحد من تلك الأرقام أن يرد دون جدوى، وأنا أرجو سيدى الوزير العظيم أن يقنع واحدا من هذه الأرقام بأن يرد على سيادته أو أى مواطن. فالغالب أنها هناك زينة أو فزدق، وفى ذات مرة أدرت رقم ١٤٢ فرد على صوت خنشور رهيب وقال:

- لا يا فندم هذا ليس رقم استعلامات الدليل.

- ومن تكون؟

- ديوان المظالم.

ففرحت وقلت: ديوان المظالم الذى أنشأه الخليفة العباسى الثالث محمد المهدى سنة ١٦٠ هجرية ٧٧٧ هجرية؟

فقال الخنشور المذكور أعلاه: هجرية إيه وميلادية إيه أيها المخرف؟.

– لا والله لست مخرفًا ولكنى رجل أسعده أن يعلم أن فى بلده ديوان مظالم.

– ولماذا يسعدك ذلك.

– لأن لدى ألف مظلمة ومظلمة، وأحمد الله أنى وجدتكم.

– احمد الله كما تشاء ولكننا هنا لن ننفعك فى شىء، لأننا نحن لا نجد من ينصفنا، فأنا مثلا خريج حقوق القاهرة سنة ١٩٦٤ م، وقد تخطونى فى درجة وكيل الوزارة أربع مرات إلى الآن، ألا تعرف أحدًا ينصفنى؟. إن ديوان المظالم يا سيدى إن هو إلا أحد الجراجات الحكومية التى يحيلون إليها أمثالى من المظلمين الذين يريدون دفنهم بالحياة.

– أعطنى اسمك يا سيدى وعندما يرقوننى وزيرا فإننى سأفتتح عهدى السعيد بالنظر فى تظلمات وكلاء الوزارات..

– أنت تهزل يا رجل؟

– لا والله أنا لا أهزل ولا فى نفسى مكان للهزل، إنما أنا رجل زهقان من أولئك الناس الذين ينشئون شيئًا يسمونه ديوان المظالم ويتركونه دون عمل. وتعبان من ناس لا تجد عندهم كيلو دقيق أو لتر زيت، ولكنهم يشترون باسمنا مليونى طن فزدق، ويطبعون دفتر تليفونات كله أخطاء ثم يحدثونك عن التليفون السوبر أوتوماتيك وتليفون الابسوفون، إنهم يا سيدى ناس فزدقيون خليون يبحثون عن الكمالى ونحن ناس مهمومون نطلب الضرورى، لقد تعبنا من عقلية الفزدق هذه..

وبمناسبة عقلية الفزدق هذه أذكر أننى كنت من مدة قصيرة فى روما أحضر مؤتمرًا، واحتجت إلى زيارة المكتب الثقافى، وفيه كما علمت مستشار ثقافى عظيم بدرجة وكيل وزارة، فذهبت إلى هناك فقيل لى إن سيادته غير موجود.. مسافر.. فسألت عمن يحل محله فقيل لى إن وكيل المكتب وهو ملحق ثقافى غير موجود أيضًا، وقيل لى إننى أستطيع اللجوء إلى مدير الأكاديمية وهو بدرجة مستشار ثقافى، ولكل من هذين الموظفين الجليلين سيارة حكومية وسائق ومكتب وسكرتارية، وذهبت إلى الأكاديمية فلم أجد المدير أو الوكيل، وهو ملحق ثقافى. وجعلت أتعجب، فنحن المشتغلين بالشئون الثقافية نروح إلى إيطاليا ونجئ منها ونحضر المؤتمرات ولم نحس مرة أن لنا مكتبًا ثقافيًا فى روما، فإذا بنا ننفق على مكتبين ثقافيين كاملين فى كل منهما مستشار بسيارة وسائق وملحق ثقافى ومكتب وحاشية، ومع هذا فهأنت ذا لا تجد أيا منهما إذا احتجت إلى خدمة ثقافية..

وعندما عدت إلى المؤتمر الذى كنت أشارك فيه فى روما سألت زميلا انجليزيا:

– كم مكتبًا ثقافيًا لكم هنا؟

– ولا واحد، الشئون الثقافية يتولاها مستشار السفارة بمعاونة رجل واسع الثقافى بسمى ديربك آشبى عاشق لإيطاليا مقيم فى روما وزوجته أصلها إيطالى وهو يقوم بالشئون الثقافية فى السفارة فى مقابل مكافأة إجمالية قدرها ألفا جنيه، وأنا أقول لك ذلك عن معرفة، فالرجل مشهور عندنا معروف لكل زوار إيطاليا من البريطانيين، وهو رجل فى غاية الكفاءة تطلب منه الخدمة اليوم فتكون عندك من الغد..

وأثناء جلسة المؤتمر سبح بى خيالى ووجدت نفسى أقول: الفا جنيه إنجليزى، أى راتب كل واحد من سواقى المستشارين الثقافيين المصريين فى روما! وهذا معقول مادامت عقلية الفزدق تسيطر علينا، فإن بريطانيا

ولها هنا لا أدرى كم معهدا تابعا للمجلس الثقافى البريطانى (البريتيش كاوفسل) وستة بيوت وقصور ثقافية انجليزية أهداها انجليز من عشاق إيطاليا إلى دولتهم بما فيها من أثاث وتحف وعليها أوقاف ومبالغ مالية فى البنوك تقوم بنفقاتها.. بريطانيا هذه ليس لديها هنا مستشار ثقافى ونحن ليس لدينا هنا إلا أقل من عشرة طلاب، لدينا مستشاران ومحلقان ثقافيان وسيارتان ثقافيتان وسواقان ثقافيان، وهؤلاء جميعا يا سيدى غير موجودين الآن! نتكلف أكثر من مائتى ألف دولار فى السنة مقابل لا شىء، هذا هو شغل الفزدق على أصوله..

وهذا كله معقول على طريقتنا، فإن أمريكا كلها ليس فيها إلا ستة عشر وزيرا يديرون أمور الدنيا، وكذلك بريطانيا ليس لديها إلا ستة عشر وزيرًا، أما نحن فلدينا واحد وثلاثون، لأننا ناس قيافة وألاجة وفزدق، وواحد من هؤلاء الوزراء بلغت الحاجة إليه فى شغل إحدى الوزارات إلى درجة أنهم دقوا بابه فى منتصف الليل وسألوه أن يتدارك مصالح مصر ويتولى هذه الوزارة قبل طلوع الشمس وإلا خربت الدنيا، ولأن عمل سيادته حيوى جدا فقد بدأ عمله من الصباح بإنشاء مكتب جديد وحمام جديد لنفسه، وأنفق فيهما من مالنا – مال قارون – سبعين ألف جنيه، وعنده حق لأن هناك مثلا يقول: إن من وجد الدلال ولم يتدلل حسابته الملائكة. إنه وزير فزدق، ومادام وزير فزدق فكيف يقنع بمكتب وحمام بأقل من سبعين ألف جنيه؟!..

وقد عرفنا منذ حين قريب أن فى مصر رجلاً جليلاً خطير الشأن يسمى خليفة السيد البدوى، ورجلا آخر أقل خطورة يسمى حامل مفاتيح مقام السيد البدوى، والأول يتقاضى أربعين ألف جنيه فى السنة، والثانى عشرين ألفا من صندوق نذور شيخ العرب السيد البدوى، وذلك من النذور التى يضعها ناس طيبون يعيشون فى العصر الحجرى فى صندوق النذور، ظنا منهم أن هذه التبرعات العبيطة ستسهل عليهم أمر دخول الجنة. قلنا:

وما عمل خليفة شيخ العرب يا سيد؟ قيل: عمل مرهق فعلا، فهو كل سنة يرتدى جبة خضراء وعمامة حمراء وحزاما مذهبا ويركب حصانا ويسير بين الرايات والبنود بين صفين من المقاويل يذكرون على نغمات الطبول حتى يبلغ المسجد فيدخل يجلس يوم المولد ويجلس على شيء يشبه العرش وبينما يخطب الخطباء ويذكر الأتقياء يكون صاحبنا فى سابع نومة، وهذا هو عمله الخطير الذى يتقاضى عليه أربعين ألف أهيف فى السنة..

أما حامل المفاتيح فإن بيده مسئولية خطيرة هى حمل مفاتيح مقام السيد، لأنهم يا عزيزى يخافون أن نصحو يوما فلا نجد السيد فى مقامه، وهنا ينقلب ميزان الدنيا، وهذه هى خطورة وظيفة صاحب المفاتيح، وأظن أننى قلت مرة إننى لم أجد السيد البدوى فى القرن السادس الهجرى الذى يقولون إنه عاش فيه، ولا ذكر له فى حروبنا مع الصليبيين، مع أن أصحابنا يزعمون أنه يحتل مكانته فى الولاية بسبب أعماله الجليلة فى محاربة الفرنج، ولكنه يظهر فى القرنين السابع والثامن، وعبد الوهاب الشعرانى يذكر له عملاً جليلاً جدًا وهو أنه عندما تزوج لم ينجب فنصحه الناس بأن يأخذ عروسه ويخلو بها فى مقام السيد، ففعل وحملت عروسه..

وتبلغ حصيلة صندوق النذور فوق نصف المليون من الجنيهات لا ينال الفقراء منها شيء، وإنما هى توزع على الخليفة وحامل المفاتيح وعلى موظفى وزارة الأوقاف ونفر آخر من المحاسيب، ولا ينفق من هذه الأموال شيء فى عمارة مسجد السيد أو مقامه، فهذا ننفق عليه نحن أموالنا، وهذا أيها السادة هو الفزدق على أصوله، فزدق طنطاوى لا حلبى..

وحيثما وجهت وجهى فإننى أجد الفزدق، ففى أى مركز من مراكز الأقاليم نحن فى أشد الحاجة إلى شيء واحد كفيل بإنقاذ عدد كبير من شبابنا من الضياع، وهو معهد صناعى زراعى عملى يعطى شبابنا مهارات

فنية تفتح أمامهم ابواب العمل النافع التقدمى والرزق الكريم، ونحن لا نكف عن التحالى بالكلام عن التكنولوجيا، فلنعمل عملا تكنولوجيا حقيقيا لنخدم بلادنا إذا كنا نحبها حقا، ولكننا لا نحب بلادنا، بل نحب نفوسنا، ولأننا نحب أنفسنا فنحن لا ننشئ المعاهد الحرفية الصناعية على أعلى مستوى تكنولوجى، وبدلا من ذلك نقدم على إنشاء جامعة، ونحن نعرف تماما أننا لا نملك فى الغالب أى مفهوم من مقوماتها: لا المبنى ولا هيئة التدريس ولا المال، كل ما لدينا هو الفزدق، وعقلية الفزدق تقول لنا إن الجامعات عياقة وزينة، وكيف تكون محافظتنا محافظة محترمة بدون جامعة؟ وهذا هو كتاب الشيح عبد الباسط الذى حولناه من أربعين سنة إلى مدرسة ابتدائية ثم ثانوية نستطيع أن نبدأ الجامعة به فنحيله كلية تربية، ونجمع تبرعات من أهل البلد، وهذه عشرون ألف جنيه يضحى بها أهل المحافظة ويقدمونها للحكومة وعليها الباقى وقدره عشرة ملايين من الجنيهات، وتبدأ الجامعة فى مبنى متواضع فقير فى صورة كلية تربية على رأسها مدرس تربية أخذناه من إحدى الجامعات ورقيناه أستاذا مساعدا وجعلناه عميدا بالنيابة ، وبعد عام نرفعه أستاذا وعميدا وهاهى ذى الجامعة قد قامت وعشرة آلاف ينحشرون فى هذه الكلية لكى يدرسوا الهواء، وبدلا من أن يتعلموا شيئا ينفعهم وينفعنا يتعلمون لا شىء، وينضمون بعد سنوات إلى جحافل البطالة المقنعة وفرق الشباب التعبان فى كل ناحية من نواحى حياته.

وليصدقنى القارئ عندما أقول إن هذا ليس نقدا للجامعات الإقليمية أو مساسا بأى هيئة من هيئات تدريسها، فكلها على العين والرأس، وكل العاملين فيها زملاء أعزاء، ولكننا نرى الآن أن الإكثار من الجامعات أثبت أنه ليس حلا لمستقبل الشباب ولا للمستوى العلمى فى البلاد، إنه حل فزدقى لا طائل وراءه ومن القواعد المقررة أن أى شىء يبدأ بداية غير سليمة

لن ينصلح حاله أبدا، والخطأ لا يؤدى إلى صواب أبـدا، ونحـن الآن فـى حاجة إلى الحلول الواقعية لا إلى الفانتازيـا والعياقـة والفـزدق، نحـن فـى حاجة إلى الدقيق لا إلى الفزدق، وبدلا من المكسرات والياميش والفزدق نحن فى حاجة إلى الدقيق والقمح والضرورى إن أحدا لم يطالبكم بالفزدق لأننا – بصراحة – لا نحب الفزدق.

(١٤)

إلى من لا يهمهم الأمر*.!

فى آخر لقاء لى مع توفيق الحكيم (الخميس ٢٥ مايو ١٩٨٥ م) أسعدنى أن أجده مشرق الوجه، متألق العينين منتعشا، يبهرك بنصاعة ذهنه وحضور بديهته. ولكنه لم يكن متفائلا بالنسبة للكتابة وجدواها فى هذا البلد وفى حديثه مع نجيب محفوظ ومعى قال: لن أكتب بعد الآن، فلا معنى للكتابة فى هذا البلد، والناس يقرأون ما نكتب نصف نعسانين ثم يدعونه ولا يعودون يفكرون فيه كأنهم لم يقرأوه ولم يسمعوا به، وخاصة إذا كانوا من المسئولين، فهؤلاء لا يقرأون أبدًا، ولماذا يكتب الكاتب إذا لم يكن له قارئ، يفهم عنه، ويتجاوب معه، أو يحاوره، فيتحرك الفكر، ومع حركة الفكر يصبح للحياة معنى وطعم وقيمة. قلت: عندك حق يا شيخ المفكرين، وإذا كنا قد يئسنا من المسئولين لأنهم جميعا ممن لا يهمهم الأمر، فلنكتب إلى غير المسئولين. لنكتب..

فإن الذين نتصور أنهم المسئولون، إنما هم فى الحقيقة غير مسئولين، ولا يهمهم الأمر، أما المسئولون الذين يحسون بالمسئولية حيال هذا البلد. فهم.. نحن الذين يحسب الناس أن الأمر لا يهمهم، وإنهم لا يستطيعون شيئا لأنهم لا يتمتعون بسلطان، ولا هم يحتلون مراكز مسئولية، لنجرب أن يكون كل حديثنا إلى من لا يهمهم الأمر، فهم الأمة إنهم الشعب إنهم القوة الحقيقية. وقد آن الأوان لأن نتعرف على أننا نحن الأساس. نحن مركز الثقل. آن الأوان لأن نكف عن رجاء المسئولين أو عقد الآمال عليهم والوقوف بأبوابهم، هذه عادة ذميمة ينبغى أن نتخلص منها، ونبدأ التعود على القيام بمصالحنا ورعاية أمورنا، كما يفعل الناس فى البلاد المتقدمة،

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٦ يونية ١٩٨٥م .

ومن المؤكد إنهم إذا وجدونا مبادرين إلى العمل تحركوا للعمل معنا. وإذا كنا نقول أن الأمة هى مصدر السلطات فلنعمل على أن يكون ذلك حقيقة لا كلاما، ولنذكر دائما أننا إذا كنا نريد أن يتحرك المسئولون، فلنكن نحن البادئين بالحركة، لنكن نحن السابقين، وهم اللاحقون. وهذه هى القاعدة التى يجرى عليها العمل فى البلاد المتقدمة، وتلك البلاد متقدمة لأن الشعب يقود فيها كل شيء. والوظيفة الحقيقية للجهاز الحكومى هناك هى التنسيق بين جهود العاملين لتتحقق من وراء ذلك للعمل كله وحدة قومية وقوة علمية وسياسية واقتصادية ذات هدف واحد وقوة محركة..

وقبل أن أمضى فى هذا الكلام أرجو أن يأذن لى القارئ الكريم فى أن أفتح قوسا أستثنى فيه من كلامى هذا ثالوث الأمان الذى نعيش فى ظله فى أيامنا هذه: رئيسنا الأكرم محمد حسنى مبارك، ورئيس وزرائه اليقظ العاقل البعيد النظر السيد كمال حسن على، ووزير داخليتنا أحمد رشدى الذى دل على أنه فعلاً من أعاظم من تولوا هذا المنصب فى أيامنا، فإن أجهزة الأمن تحت قيادته أجهزة أمن فعالة حقيقة، ونحن جميعا ننام آمنين فى هذا البلد لأنهم ساهرون، ولابد أن أدخل فى هذا القوس معهم الدكتور مصطفى كمال حلمى* الذى أصبح مع الزمن فيلسوف التربية والتعليم فى بلادنا، ولو أعانته الظروف على أن يحقق آماله لاستطاع أن يقدم لهذا البلد أضعاف ما قدم ويقدم، والدكتور ماهر أباظة وزير الكهرباء الذى يقودنا فعلا إلى عصر الصناعة..

وكنت أحب أن أدخل فى زمرتهم راعى الزراعة فى أيامنا الدكتور يوسف والى ولكنى لا أدرى لماذا يصر دائمًا على أن يقول فى كل حديث له: تنفيذا للتوجيهات الفلانية فإننا اتجهنا فى الخطة الخمسية إلى كذا أو تنفيذا لما قيل فى المناسبة الفلانية، فإننا نوجه جهدا كبيرًا فى توسيع الإنتاج من اللحم الأبيض أو الأحمر أو الأزرق، وأقول له: يا سيدى إنك

---

* كان وزير التربية والتعليم فى هذه الفترة .

بطبيعة مركزك العلمى وبحكم مكانتك القومية الكبيرة وخلقك الذى نتخذه جميعا قدوة وأنت بهذه كلها يا سيدى مصدر التوجيه والإلهام والتخطيط الزراعى كله، وممن يا سيدى ينتظر التوجيه الزراعى والصناعى والزراعى إلا منك؟ إننا جميعا ننظر إليك وننتظر من يديك سياسة زراعية غذائية صادرة عن علمك وفهمك وتجربتك، وهذه هى وظيفة عظام الوزراء فى البلاد التى قدر الله لها أن تخرج من مستنقع التخلف والفقر والفوضى الإدارية، وفى منتصف الستينات ذهب ادجار فور وزير الخارجية الفرنسية المشهور إلى دى جول وقال له: إننى لا أدرى ماذا أعمل فى المشكلة الفلانية..

فقال ديجول: أنت لا تعرف وتنتظر منى أن أعرف؟

– أتيت آخذ الرأى والتوجيه منك..

– وأين ملكاتك وخبرتك أيها الوزير؟ وأين نواب الشعب وفيهم قطعا من يعرفون أكثر منى عن المشكلة التى أتيت تعرضها على يا مسيو فور، إننى لا أحب الوزير الذى يحمل مشاكله ويضعها على كتف رئيس الدولة، وما نجح النظام السياسى الإنجليزى إلا لأن المسئولين فيه يعرفون حلول المشاكل التى تقع ضمن مسئولياتهم، وما احتاجوا إلى رأى فيه عرضوه على البرلمان، وتشاوروا مع أعضائه فيه ثم ذهبوا برأى الأمة فى مشاكلهم إلى الملكة، فربما كان لديها ما تضيفه بصفتها ممثلة أطول المؤسسات السياسية عمرًا وأكثرها تجربة، وقلما تفعل.

وفى المساء استقال ادجار فور من وزارة الداخلية، واتصل به دى جول بالتليفون وقال له:

ماذا فعلت يا مسيو فور

– يا سيدى الجنرال لقد أخجلتنى بكلامك هذا الصباح. ولم أجد أمامى إلا الاستقالة.

– ولكنى لا أستغنى عن رأيك يا مسيو فور.. جرب حظك فى وزارة التعليم. لقد قبلت استقالتك من الداخلية وعينتك وزيرا للتعليم، فلك فيه خبرة طويلة وآراء نافعة. وجامعاتنا فى حاجة إلى رأى سديد مثل رأيك ويد حازمة.

وبالفعل نجح ادجار فور فى وزارة التعليم نجاحًا جعله بالإجماع أقدر وزراء التعليم فى أوروبا فى وقته. وهو الذى تولى إصلاح التعليم فى فرنسا بعد ثورة الطلاب فى باريس سنة ١٩٦٨ م. والتقرير الذى قدمه إلى الجمعية الوطنية فى فرنسا لإصلاح التعليم الجامعى أصبح وثيقة دولية، فقد اعتبرته اليونسكو وثيقة تاريخية عالية، وطبعته من أموالها بست لغات.

وما دمت قد قلت هذا فليأذن سيدى وزير الزراعة فى كلمة أخرى تثقل صدرى، وأحب أن أقولها لأستريح، وهى ليست للعزيز الدكتور يوسف والى وحده بل هى لكل السادة الوزراء وهى: ما الداعى للرفق البالغ فى التحدث إلى الجماهير والاجتهاد فى استرضائها؟ فى الصور التى ينقلونها لنا فى التلفاز من مجلس الشعب ويسمونها صورا حية – وهى فى الحقيقة بعيدة جدًا عن الحياة – أسمع الدكتور والى يدافع عن إهمال الفلاحين وتضييعهم للأرض والمحاصيل، وهو يقول إن أرضنا الزراعية تتناقص، ولكن المحاصيل تزداد، ومن الممكن أن تزيد المحاصيل، ولكن هذه الزيادة لا يرجع الفضل فيها للفلاحين. إنها ترجع إلى أصناف السماد الجديدة وإلى مبتكرات من البذور والتقاوى وأساليب فنية فى الزراعة تصلنا من الخارج، وهى ترجع أيضا إلى اجتهاد عدد كبير من رجال وزارة الزراعة فى الأرياف فى القيام بعملهم، لولا هذه المستحدثات والمبتكرات التى يكتشفها لنا الآخرون لما أنتجنا حتى الثلاثين فى المائة من غذائنا، فلماذا لا نوجه اللوم إلى الفلاحين، ونقول لهم إنهم لم يعودوا جديرين بأجدادهم الفلاحين المخلصين المجربين الذين لم يطعموا مصر وحدها بل أطعموا مصر والحجاز وشمال السودان دائما، وبلاد الشام أحيانا، وإلى أواخر الثلاثينات كان

المستوردون البريطانيون يفضلون محاصيل مصر من القمح والذرة والشعير والفول على غيرها من حاصلات الدنيا، هذا بالإضافة إلى القطن والكتان والبصل والثوم والخيار والبرتقال وكانت محاصيل مصر منها أحسن ما فى الدنيا. هذا المجد الزراعى ضاع معظمه فلماذا لا نواجه الفلاحين بهذه الحقيقة ولا نلومهم أشد اللوم على ذلك التقصير المعيب فى حق بلادهم؟ لقد استمعت إلى برنامج عن الاقتصاد المصرى فى إذاعة لندن العربية، وقد اشترك فى هذا البرنامج نفر من المسئولين من بينهم وزير الزراعة، وفى الدقائق الثلاث التى تكلمها تحدث عن التوجيه الذى يتلقاه، وعن الفلاح الذى يشقى فى خدمة الأرض فقلت له - فيما بينى وبين نفسى - لماذا يا سيدى ولا أحد يلزمك بهذا الكلام؟ إننا جميعا نعرف أنك من أعاظم وزراء الزراعة الذين عرفناهم، ونحن ننتظر دائمًا أن تعطينا فى أحاديثك من علمك وخبرتك ونريد أن نراك حاسمًا مع الفلاحين.

إنك أستاذ جامعى مشتغل بالتدريس مثلنا. ونحن - جماعة المشتغلين بالتعليم - يكون نجاحنا أكثر مع الحزم والشدة مع الطلاب، والطالب نفسه يحب أستاذه القوى الحازم الذى يحكم الفصل، ويفرض النظام فى قاعات التدريس ويفرق بين الطالب الجاد والطالب الهازل، وفى ذات مرة وجدت بعد أن صححت أوراق الامتحان أن الراسبين يقاربون الثمانين فى المائة، ورئيس الكونترول طلب إلى أن أعيد النظر فى أوراق الإجابة قبل تثبيت النتيجة فى الكشوف فقلت له: - لا أستطيع أيها العزيز أن أزيد طالبا درجة واحدة، لقد راجعت الأوراق ثلاث مرات، وأعدت النظر فى ورقة الأسئلة أكثر من مرة، واسترجعت فى خاطرى كل ما فعلته مع الطلاب هذا العام، وأرقت فى الليل أفكر فى شأن هؤلاء الطلاب الذين رسبوا واقتنعت بأنه لا يمكن أن أزيد واحدًا منهم درجة، قال: ولكن هذه النتجية تمس سمعتك، إذا كيف يرسب من طلابك ثمانون فى المائة؟ ثم إن هذه الشدة حرام والطلاب سيكرهونك.

– كما قلت لك يا أخى، هذه هى كلمتى الأخيرة فى هذا الامتحان. إن الحرام فعلا هو أن نرفق بالطالب العابث الضعيف على حساب الطالب الجاد القوى. إن البلد يعتمد فى حياته وتقدمه على الجادين المجتهدين، فلا نظلمهم ونسوى بهم الضعفاء.

وظهرت النتيجة وغضب الطلاب والتف بعضهم حولى لائمين. فقلت لهم: إننى فى القاهرة هذا الصيف كله، وأنا مستعد أن أعطى الراسبين درسًا أسبوعيًا أراجع معهم فيه المقرر كله وأشرح لهم ما خفى عليهم، وأنا مستعد لأن أدفع لكل طالب يريد نصف ثمن كتاب هاملتون ريد فى العصور الوسطى وكان عدد الراسبين ٢٢ طالبا.

وكان هذا من أمتع الأصياف التى مرت بى. كنت مع الطلاب فى الجامعة مرتين فى الأسبوع، وراجعت معهم مادتى ومادتين أخريين، وطالعنا معا الكتب الإنجليزية المعتمدة فى تلك المواد، فتخلص الكثيرون منهم من عقدة الخوف من اللغة الإنجليزية بسبب ضعفهم فيها. ونجح كل الطلاب فى الدور الثانى عدا اثنين، وأصبح أولئك الطلاب أصدقاء أعزاء لى سنوات طويلة. ولا ألقى منهم واحدًا إلى يومنا هذا إلا ذكرنا هذه الأيام، وكلهم نجحوا فى الحياة وواحد منهم أصبح وزيرًا مرتين. وكلما التقينا ذكرنا ذلك الصيف وكيف سعدنا فيه.

إن الناس فى بلدنا يكنون من قديم الزمان احترامًا كبيرًا للوزراء وكبار المسئولين، وهذا تقليد قومى عندنا. والوزير القوى الحاسم الصادق عندهم أب وقائد وقدوة، وهم يحبونه ألف مرة أكثر مما يحبون الوزير الرفيق المجامل لهم، فواجهوهم أيها الناس بالحقائق، وعاملوهم بالحزم، إن من أكبر الخلال التى تعجبنى فى الرئيس مبارك أنه يواجهنا بالحقائق فى خطبه وأحاديثه، والناس يزداد حبهم له وتمسكهم به عندما يحسون أن قيادتهم بيد رئيس قوى حازم عارف بما يحاولون إخفاءه عنه من الحقائق والعيوب ومازالت كلماته تتردد فى سمعى عندما قال لنا فى إحدى خطبه

الأولى إنه لا يريد المديح ولا يحبه ولا يجوز عليه الزيف أو الخداع أو كلام الملق، إنه رجل جاد، وقد قبل أن يتولى الرياسة ليعمل ويخدم وطنه، ولا وقت لديه لما سوى ذلك.

وأحب أن أقول لنفسي وسواى من عامة الشعب كبارًا وصغارًا نساء ورجالا أننا فى نهاية المطاف المسئولون ونحن الذين يهمهم الأمر، وفى عالمنا الراهن لم يعد هناك مسئول وغير مسئول. فكل المواطنين مسئولون، والعالم من حولنا دخل من سنوات فى مرحلة تطور ونهوض قوميين عالميين لم يسبق لهما مثيل، وهناك يقظة عنيفة وواسعة المدى فى كل الدنيا، وانظر مثلاً لبلاد كانت فى سبات أو تدهور إلى حين قريب تجدها قد استيقظت وفتحت عينيها وسرى فى كيانها وعى جديد، وانظر مثلاً إلى ما يجرى فى اليونان اليوم لقد كانت اليونان دائمًا سابقة علينا فى عالم الصناعة والتجارة والملاحة البحرية، ولكن الوعى القومى الذى يشمل اليونان اليوم خليق بأن يكون درسًا لنا. واندرياس باباندريو زعيم الحزب الاشتراكى الذى فاز بالانتخاب أخيرًا، وكسب فترة حكم ثانية يقود البلاد فى طريق نهوض قومى واسع، والناس أيدوه لأنه ينادى بإخراج اليونان من وصاية الولايات المتحدة، والناس تخلوا عن خصمه قنسطنطين ميتزوتاكيس الموالى للغرب لأنه سائر فى أعقاب الولايات المتحدة، وفى إحدى خطب باباندريو الأخيرة فى مدينة باتراس قال إن الشعب لابد أن يؤيده فى القضاء على الحزب الشيوعى الذى يفسد الحياة السياسية اليونانية – كما قال – ويتصور هذا الحزب أنه سيكسب أصواتًا تمكنه من الاستمرار فى التحكم فى حكومة اليونان لأنه يحصل دائما على ما بين عشرين وثلاثين مقعدا فى البرلمان تجعله القوة المرجحة فى الميدان السياسى – فى انتخابات ٢ يونيو ١٩٨٥م الحالى تبين أن الناس استجابوا له، وخرج الحزب الشيوعى بهزيمة ساحقة أخرجته من ميدان التحكم فى حكومة البلاد، ونحن هنا يهمنا جدا أن ندرس سياسة أندرياس باباندريو

تهمنا كذلك الروح القومية التى أيقظته، وخلال السنوات الأربع الماضية قفزت الصناعة فى اليونان قفزة واسعة وتأصلت فى البلد صناعات الحديد والصلب والموتورات والماكينات بشتى أنواعها، والدين اليونانى هبط إلى أربعة آلاف مليون دولار، والسياحة حلقت وجلبت للبلاد خمسة آلاف مليون دولار، والقرى اليونانية أصبحت كلها منتجعات سياحية، وأثينا تتألق اليوم بجمال يجعلها فى مستوى باريس نظاما ونظافة.

وهذا كلام أرجو ألا يقرأه سيدنا وزير السياحة لأنه عندما يريد أن يعلل خيبة السياحة المصرية فى عهده وعهود من سبقوه يقول إن أزمة السياحة المصرية جزء من أزمة السياحة العالمية، كأن سيادته لا يعلم أن حجم السياحة العالمية قد تضاعف مرات خلال السنوات العشر الماضية، والولايات المتحدة وحدها أرسلت إلى انجلترا فى الصيف الماضى ستين مليون سائح أنفقوا فيها نحو مائة ألف مليون دولار، وفرنسا على العادة اجتذبت عشرات الملايين، وأسبانيا استعادت مركزها فى عالم السياحة بعد أن ظن الناس أن السياحة الأسبانية ستخسر مع الاشتراكيين أما اليونان وبلغاريا ورومانيا والنمسا ويوغوسلافيا. فالسياحة تكون خمس دخلها القومى أما نحن فإن السياحة عندنا فى حالة غيبوبة، وكل سائح يزور مصر يقسم ألا يزورها مرة أخرى ومكاتب السياحة الأوروبية تقول لكل قادم إلى مصر إنها غير مسئولة عما سيجرى له إلى بلد لا يستطيع السير فيه من فندقه بضع مئات من الأمتار – إلى المتحف المصرى؟ وفى منطقة الهرم يجد نفسه فريسة جماعات التراجمة والجمالة وأصحاب الخيول المتحصنين فى قلعة نزلة السمان، ومكاتب السياحة مقاه وكافتيريات للمرشدين والمفتشين السياحيين، وليس فيها نشرة أو خريطة أو دليل سياحة، ولا يفكر سائح فى زيارتها لأنه لن يجد فيها من يجيبه عن سؤال، وكل ذلك بفضل قادة الوزارة المسئولين الذين يهمهم الأمر.

لهذا فإننى أوجه هذا الكلام إلينا – نحن غير المسئولين لأن الأوان قد آن لنعرف أننا نحن غير المسئولين هم الذين ينبغى أن يعنينا الأمر فعلا،

وفى قطاعات واسعة من الإدارة تحس، وكأن الإدارة المصرية تدهورت تدهورا مخيفا، حتى فيما يتعلق بالميادين التى لا ينبغى أن تهمها الإدارة لأنها مورد إيراد رئيسى للبلد – أصبح صالح البلد لا يهمها فمصلحة الضرائب تدهورت تدهورًا لا يصدق خلال السنوات الخمس الأخيرة، فقد كانت فى العادة ترسل إلينا ربطا مؤقتا للمطلوب منا بعد تقديم الإقرارات بثلاثة شهور أو أربعة، أما خلال الأعوام الثلاثة الماضية فأنت تقدم الإقرار ثم تنتظر سنتين أو ثلاثا حتى يستدعوك، وهم عندما يفعلون ذلك يرسلون لك خطابا زريا لا يقرأ لسوء كتابته وطباعته والكتابة فيه نبش فراخ، والأرقام تشبه الخط المسمارى، والخطاب يصاغ فى العادة فى عبارات تهديد تتوعدك بالعقاب والغرامة والحجز إذا لم تسارع إليهم كأنك مجرم هربان عثر عليه البوليس، فأنا مثلا قدمت إقراراتى عن سنوات ٨٢ و ٨٣ و٨٤ فى مواعيدها، ولكن هذا الخطاب المهين لم يصلنى بعد عن أى من هذه السنوات وليس أمامى إلا أن أذهب إليهم طائعا مختارا وأرجوهم أن يحاسبونى.

وهذا يذكرنى بحكاية خروف اشتراه رجل قبل عيد الأضحى بفترة وجاء يوم العيد وانتصف النهار ولم يسأل أحد عن الخروف، ولما كان انتظار البلاء شرًا من وقوعه فقد ضاق صدر الخروف وتعب من الانتظار فذهب إلى باب البيت ودقه وعندما فتحوا له قال:

– شوفوا اسمعوا أنا ليس عندى وقت لهذا اللعب، العيد وأتى فما هذا الاهمال؟ وإلى متى انتظر؟ أرجوكم أن تخلصوا شغلكم معى إننى خروف عيد محترم ووظيفة خروف العيد المحترم مثلاً هى أن يموت بالسكين صباح أول أيام العيد، وإذا أنتم لم تقوموا بواجبكم ذهبت إلى أى بيت من هذه فقد يرأفوان بى ويخلصوننى من عذاب الانتظار.

وهذا البلد أيها الأخوة بلدنا وكل خير يصيبه يعود علينا نحن، وهذه حقيقة تغيب عن الكثيرين جدا ممن يهمهم الأمر، وفى ذات مرة ركبت

القطار إلى الإسكندرية ووصلنا إلى دمنهور، وصاحبنا الكومسارى لم يشرفنا بطلعته البهية ثم دخل علينا فوجد صديقا من أصدقائه فأخذه بالأحضان، وجلس إلى جواره ووضع الحقيبة على الأرض وهات يا سلامات وكمان سلامات، وفينك يا راجل ومر الفراش فطلب قهوة لنفسه ولصاحبه وكدنا نصل إلى الإسكندرية وضاق صدرى فنهضت إليه وقلت:

– أرجوك يا أخانا أن تقوم بواجبك وتفتش هذه العربة ثم تمضى إلى العربة التى تليها فقد كدنا ندخل الاسكندرية.

والرجل تعجب من أمرى وقال فى استياء بالغ.

– ومالك أنت ومالى يا حضرة هل أنت رئيسى هذا عملى، وأنا مسئول عنه أفتش أو لا أفتش أنا حر.

– لا يا سيدى أنت لست حرا أنت مفتش تذاكر مؤتمن على حقوق الدولة وعليك أن تنهض وتفتش هذه العربة، وبقية العربات قبل أن نصل إلى الإسكندرية.

– وإذا لم أفعل فما عساك قادرا على فعله؟

– سأقودك مع أصدقائى هؤلاء إلى بوليس محطة الإسكندرية ونوجه إليك تهمة تبديد مال الدولة والتفريط فى المال العام.

– يا سلام ثلاثة بالله العظيم ما أنا منقول من مقعدى هذا وسأتناول قهوتى مع قريبى واعملوا ما فى يدكم.

وعندما وصلنا الإسكندرية لم ننزل فى محطة سيدى جابر وفى محطة الإسكندرية رفض الرجل الذهاب معنا إلى مركز بوليس المحطة وافتعلنا معه مشاجرة وناديا بوليس المحطة فأقبل شاويش يصلح بيننا ويفضها بالحسنى والطيب أحسن.

– ولكن يا سيدى الشاويش هذا رجل مبدد لمال الدولة ومتلاعب فى المال العام.

– وماذا فعل؟

– أحمل التفتيش على التذاكر فى عربتنا، وهى السابعة فى القطار، وترك ست عربات لم يفتشها.

– وهل أنتم رؤساؤه؟

– لا يا سيدى نحن مواطنون عاديون، ونحن من أبناء الشعب، وواجبنا الحفاظ على المال العام لأنه مالنا.

– ما لكم؟

– ومالك أنت أيضا

– مالى؟ أنا ليس لى عند الحكومة مال قبضت مرتبى عن هذا الشهر، وبيننا وبين الشهر القادم تسعة أيام.

– يا سيدى الشاويش أرجو أن تفهم عنى أن مال الدولة مال الشعب، والشعب مسئول عن المال العام مثله فى ذلك مثل الموظفين.

– يا أخوانا بلاش شوشرة ووجع دماغ إحنا ناقصين؟

– أرجو يا حضرة الشاويش أن تأتى معنا بهذا الرجل إلى نقطة بوليس المحطة.

– تريدون منى أن أقبض على رجل طيب صاحب عيال غلبان وشقيان واقتاده إلى نقطة البوليس دون ذنب جناه؟

ثم نظر إلى الرجل، وقال اتفضل أنت يا سعيد أفندى روح لأولادك دول ناس فاضيين يريدون أن يتسلوا على الغلابة أمثالنا، وسعيد أفندى نظر إلينا بكل ازدراء ومضى لشأنه.

وذهبنا إلى نقطة البوليس فوجدنا ضابطين شابين وثلاثة عساكر وحكينا الحكاية، وطلبنا تحرير محضر استدعاء وتحقيق مع هذا الرجل.

– وما اسم هذا الرجل؟

– سعيد افندى.

– سعيد إيه نريد الاسم الثلاثى.

– يا سيدى إن اسم هذا الرجل الثلاثى عند المصلحة، فهو مفتش القطار رقم كذا الذى بارح القاهرة فى الحادية عشرة والربع صباح هذا اليوم إلى الإسكندرية.

– يا حضرات ماحدش فاضى للكلام العجيب ده يا عسكرى هات لحضراتهم ورقة يكتبون فيها ما يريدون.

– وماذا ستفعل بورقتنا هذه؟ نرجوك أن تحولها إلى المسئولين.

– لن أفعل سأكتب عليها بحفظ .

– ولماذا لا تفعل؟ ألا يهمك المال العام؟ هل نترك هذا الرجل يختلسه؟

– إننى لا أفهم كيف تتهمون موظفا عاما بالاختلاس!!

ورأينا أنه لا فائدة. فنحن فى واد، وهذا الخلق كله فى واد. ونحن الذين يهمنا الأمر ضحكة فى وسط ناس لا يفهمون عنا لأن الأمر لا يهمهم.

وقبل أن نتفرق ويذهب كل منا إلى داره اتفقنا على أن نجتمع بعد عودتنا إلى القاهرة لنتدارس هذا الموضوع الخطير. موضوع البحث عمن يهمهم الأمر فى هذا البلد حتى لم يعد بالفعل مسئول محدد عن مصالح البلاد والعباد. ومادام المسئولون غير مسئولين، فلابد أن يتحرك غير المسئولين ويقوموا بواجبات المسئولين. ومن لا يهمهم الأمر ينبغى أن يكونوا هم من يهمهم الأمر.

وقال واحد منا:

– الموضوع أيها السادة موضوع وعى والمسئول عن الوعى هو وزير الإعلام.

– عندى فكرة نذهب لمقابلة السيد وزير الإعلام ونشرح له الأمر، ونرجوه أن ينظم حملة توعية.

وقال واحد منا مشهور بيننا باليأس التام من أى إصلاح أو تحسن: إن وزير الإعلام إذا تفضل وقابلكم لن يهتم بشىء مما تقولونه، ولن يتحرك خطوة لأنه لا يتحرك إلا إذا جاءه توجيه من فوق.. وعمله الرئيسى هو إذاعة البيان الأسبوعى عن جلسة مجلس الوزراء وما تم فيها، ولا أقصد وزير الإعلام الحالى لأن كل وزراء الإعلام من يوم كانت عندنا وزارة إعلام يسيرون على هذا التقليد، والإعلام عندهم هو الإعلام عن الدولة والدعاية لها، وفى عهد عبد الناصر والسادات كان الإعلام مقتصرا على رئيس الدول، وفى أيام عبد الناصر خاصة كان المفروض والمسلم به فى أجهزة الاعلام جميعا أنه لا يوجد فى هذا البلد إلا إنسان واحد والباقى مواش، ومن يرفض أن يعترف قولا وعملا أنه ليس خروفًا أو ثورا أو بقرة لابد أن تتخذ ضده الإجراءات لأنه مواطن خارج على النظام، وفى أيام السادات كانت هناك مغنية تلقى علينا كل يوم أغنية تقول: «يا حبيبنا يا سادات يا رئيسنا يا سادات» لأن عشق الرئيس كان فريضة على كل مواطن.

قلت: على أى حال فالأمر خطير جدًا، ومادامت الأجهزة الادارية فى حالة إغماء، فلابد أن نقوم نحن بخدمة هذا البلد، لأنه بلد عظيم ومهم، ويدور فى رأسى الآن ضرورة عقد مؤتمر موضوعه: من الذى يهمه الأمر؟! لأن الدنيا كلها دخلت فى حركة وعى قومى، ولابد أن نسارع بدخول هذه الحركة.. وإلا فالعواقب وخيمة.

(١٥)

لم نَعُدْ بعد أطفالاً

قرأت الخبر التالى فى العدد ٤٥٩ (الأحد ١١ أغسطس ١٩٨٥م) من مجلتنا العزيزة «أكتوبر» : «وافق كمال حسن على رئيس الوزراء* على خطة جديدة لتطوير قصر المنتزه وتحويل حدائقه وشواطئه إلى منطقة سياحية عالمية. صرح بذلك محمود أمين عبد الحافظ وزير السياحة الأسبق ورئيس مجلس إدارة المنتزه. وقال إن الخطة التى اعتمدها رئيس الوزراء تتضمن إقامة قرية سياحية من الموتيلات والشاليهات وبحيرات صناعية تستمد مياهها من البحر. وتشمل دار عرض رفيعة المستوى لاستقبال فرق الباليه والأوبرات ، والفرق الاستعراضية العالمية ومتحفا للمركبات الملكية. وأضاف د. عبد الحافظ إن الخطة تحرص على عدم المساس بالأشجار أو المساحات الخضراء».

إلى هنا ينتهى هذا الخبر العجيب الذى كتبه زميلنا سلطان محمود.

وقد قرأت هذا الخبر وأنا جالس فى حديقة المنتزه على عادتى عندما أكون فى الإسكندرية ، وأنا من عشاق الخضرة والحدائق والأشجار.

وتركت المجلة وتلفت حولى وقلت فى نفسى: على من يضحك مجلس إدارة المنتزه؟ على نفسه أم علينا؟

ذلك أننى كنت قبل أن أقرأه أتلفت حولى وأتحسر على قصر المنتزه وكل ما فى قصر المنتزه.

فإن ثلاثة أرباع الخضرة قد زالت. ماتت تحت الأقدام. والأولاد والشبان يلعبون الكرة والراكيت على الخضرة ، وفى كل مكان حتى تحت الأشجار.

---

* أثناء كتابة هذه المقالة كان كمال حسن على تقلد رئاسة الوزارة وقد نشرت هذه المقالة فى ٨ سبتمبر ١٩٨٥م .

وعلى طول ما جلست فى هذه الحديقة لم أر فيها زراعيًا من الذين يسمونهم مهندسين زراعيين ولا فكرة لديهم عن الهندسة الزراعية بل لم أر ضابطا أو عسكرى بوليس يحرس هذه الحديقة التى كانت رائعة ويحميها من البلاء والتخريب.

ليس هناك إلا البستانيون المساكين يرووون الزرع الذى مات معظمه وقلوبهم تتقطع حسرات لأنهم يعرفون أنهم يرووون الموت ، وأن عملهم ضائع فى الهواء ، وواحد منهم كبير السن من الجيل الذى كان هنا أيام كانت هذه الحدائق حدائق ملوكية لا يزال يهز رأسه ويتحسر. لقد زرتها سنة ١٩٤٩م بدعوة من صديق لى ممن كانوا يعملون فى القصور، كانت جنة ، الخضرة كانت كاملة ، وارتفاع النجيل كان لا يقل عن عشرة سنتيمترات ، وأحواض الزهر كانت متعة وكان هناك مهندس بساتين إيطالى الأصل يعرف كل زهرة باسمها وتاريخها ، وكان هناك نحو ثلاثين حوضا من أصناف الورد الجورى والفرنسى والإنجليزى ألوانها بديعة تملأ القلب بهجة. وكان هذا المهندس يكسب مسابقات ورود وزهور عالمية باسم قصر المنتزه واسم حدائق المنتزه كان اسما عالميا. وفى الدنيا اليوم نحو مائة وسبعين نوعا من الورود منها أربعة طوروها هنا فى حدائق المنتزه وحدائق رأس التين ، وهى الروزا الكساندرينا والرويال ديب رد (بكسر الراء) وردة النسمة الاسكندرانية (اليكاسندرينا بريز) ، وملكة المتوسط (ميديترانيان كوين) واثنتان من هذه الورود رأيتهما فى معرض الورد العالمى فى مدريد ويسمونه معرض المليون وردة وزرعتهما فى حديقة معهدنا هناك ومازالت واحدة منهما زاهرة إلى اليوم وقد سقيتها بنفسى فى العام الماضى.

واقترب منى البستانى الطيب العجوز ، وقال يسرى عن نفسه كما هى عادته معى كل يوم:

– خلاص يا أخى كل شىء قد انتهى ومات أو فى طريقه إلى الموت منذ أن ذهب الملك وهجم الغزاة على هذا القصر الجميل وبساتينه ، بدا كل

شيء يتلاشى برضه الملوك لها فائدة يا جدعان. والحديقة التى قالوا إنها ستتحول إلى منتزه شعبى زاهر تقاسمتها فئتان من الدخلاء أصحاب النفوذ الذين انشأوا الكابينات على البحر واحتكروها وجموع الأولاد والشبان وعائلاتهم من عامة الناس وهم لا يأتون هنا للاستمتاع بالزهر أو الجمال بل لكى يفرشوا الملايات على الخضرة ويضعوا حلل المحشى والملوخية والسمك وتلال الخبز ، ثم يأكلون ويتركون الحديقة من بعدهم مزبلة ، حتى صناديق الزبالة لعب بها أولادهم. وبعضها أخذوه معهم لكى يضعوا فيه بقايا الطعام ، بينما أولادهم وغيرهم من الشباب يلعبون الكرة والراكيت ، ويخربون كل شيء. وهنا قسم مخصص للعب ، وهنا عشرات اللافتات تمنع لعب الكرة فى هذه المنطقة وبعضها لطيف الأسلوب ، يقول: للتمتع بجمال الطبيعة حافظوا على نظافة الحدائق ، والناس على العادة إما لا يقرأون هذه اللافتات وإما يقرأونها ويحسبون إنها موجهة إلى غيرهم لأنهم لم يأتوا إلى هنا للتمتع بجمال الطبيعة بل لتخريبها ، وهذا جزء من الثقافة القومية عندنا اليوم ، وهذا بالضبط ما يعلمونهم إياه فى المدارس ، وقد رأيت فى حى مصر القديمة حوش مدرسة إعدادية أو ثانوية ، الحوش مساحته لا تزيد على ٤٠٠ متر ، وعدد الطلبة فوق الألف وخمسمائة ، وهؤلاء جميعا يتفسحون هنا! إنهم لا يدوسون الزرع فقط بل يدوس بعضهم بعضا ، وبقية الحوش أخذوه وبنوا فيه فصولا ، والمدرسة كلها أصبحت مثل مزرعة دواجن ، والطلبة كأنهم فراخ ، كل منها يطل برأسه من فتحة القفص طلبًا لشيء من الهواء. فراخ تعيسة ، ولكنها لا تبيض لأنها فراخ عواقر.

وقلت للبستانى الطيب العجوز:

– أليس هنا فنيون زراعيون..؟

فابتسم الرجل ابتسامة مريرة وقال: مهندسون زراعيون؟ هنا يا سيدى إدارة زراعية كاملة على رأسها مدير عام يساعده جيش من الزراعيين ،

ولكنهم لا يتنازلون بالمرور هنا أبدا ، إنهم هنـاك فـى مبنـى الإدارة أربعـة أدوار تغص بالموظفين الذين يقال إنهم فنيون ولكننـا لا نـرى منـهم أحـدا. إنهم إما فى المكاتب أو جالسـون مـع أقاربـهم علـى الشـاطئ. أيـام الملـك لم يكن هنـا إلا أربعـة مهندسـى بسـاتين ، وكـانوا طـوال النـهار يجربـون نواحى البساتين على الموتوسيكلات ، ويرعون الزهور زهرة زهرة ، والورود وردة وردة والأشجار شجرة شجرة هؤلاء مضوا لحالهم عندما مضت أيام عز هذه الحديقة ، واليوم تجد كل موظف كبير فى الإسكندرية له ابن متخرج فى كلية زراعة ألحقه مهندسًا زراعيًا إمـا بـالمنتزه أو رأس التـين. والدنيـا أصبحت سبهللة ومكان الأشجار زرعنا موظفين يتربون ويسـمنون هنـا كمـا تسمن العجول ، والذى جـرى لهـذه الحديقـة هـو مـا يجـرى لكـل روض يدوسه قطيع من البقر والثيران قلت: طـب والبوليـس؟ أليـس هنـا حـرس يحرسـون هذه البساتين؟

– حرس؟ يا سيدى لدينا هنا جيش من حـرس البسـاتين علـى رأسـهم ضابط عظيم برتبة لواء ، ولكن لا علاقة لهـم بحراسـة الـزرع أو الشـجر ، وبينما كنت أتحـدث إلى الرجـل سمعـت أصـوات السـيرينات وأرتـالا مـن السيارات تخطف فى شـوارع البسـاتين والدنيـا انقلبـت وصفـوف العسـكر ظهرت – لا تدرى من أين – واصطفت علـى جوانـب الطـرق حتـى يمـر الموكب الجليل ، ويقول البستانى:

– هذا هو عملهم أيها الأخ لا شأن لهم بالحديقة أو الخضرة أو الزهر أو الشجر بل وظيفتهم هذه الاستعراضات لكـى يشـعر المسـئولون إنـهم هنـاك وكلهم يقبضون مرتبات وأوفر تايم وبدل طبيعة عمل وعلاوات وحوافز. ليس هناك إلا نحن البستانيين الغلابة ، من الثامنـة صباحـا إلى الخامسـة بعـد الظهر علينا أن نروى ونزرع ونكنس ونحرس وطوال النهار تبح أصواتنا مع جموع اللاعبين الذين يأتون إلى هذه البسـاتين لا لكـى يسـتمتعوا بـها بـل ليخربوها.

وقلت فى نفسى: على من يضحك مجلس إدارة المنتزه؟ إن رئيسه كان من نحو عشرين سنة وزيرًا: ينقلونه من التمرين إلى البلديات إلى السياحة وبعد ذلك عينوه محافظًا وزيرًا ، وأخيرًا انتهى به المطاف إلى رياسة مجلس إدارة شركة المنتزه ولابد أنه عبقرية لا تعوض فهم لا يستغنون عنه أبدا ، وسيادته يتقلب - حرفيا - طول عمره فى كبار الوظائف لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عن عبقريته.

ثم جاءت كارثة تسرب مياه المجارى إلى الشواطئ وكارثة تلوث المياه فى الإسكندرية. وأنا لن أتعرض هنا لتلك المصيبة بعدما أصبحت حديث الناس أجمعين ، وقد أحسن الكتابة فيها الزميل صلاح منتصر فى مقال حاسم نشر فى هذه المجلة من أسبوعين ، ولكنى - وأنا أتحدث هنا عن حكاية حدائق المنتزه التى يمنينا مجلس الإدارة بتحويلها إلى منطقة سياحة عالمية فيها موتيلات وشاليهات وبحيرات صناعية تستمد مياهها من البحر (الملوث) ودار عرض رفيعة المستوى لاستقبال فرق الباليه والأوبرات والفرق الاستعراضية العالمية.. إلى آخر آخر هذه التهيؤات التى نعجب كيف تصدر عن مسئولين كبار ذوى خبرة طويلة ويعرفون الزير وغطاه ولابد وأنا أتحدث فى ذلك الموضوع لابد أن أنقل الفقرة التالية من تحقيق صحفى عن كارثة التلوث فى الإسكندرية لأنها تتناول بالذات مصيبة تلوث شواطئ المنتزه التى لابد أن المسئولين عن المنتزه كانوا على علم بأمرها عندما تكلموا عن المصيف العالمى والمسرح الرفيع المستوى وفرق الأوبرا العالمية (تصور!) قال الزميل الصحفى علاء رفعت فى تحقيق فى الموضوع نشرته جريدة الأخبار فى ٨٥/٨/١٩ - الصفحة الثالثة: «كانت أول نقطة قامت اللجنة بزيارتها - لجنة دراسة كارثة الصرف الصحى فى الإسكندرية - هى منطقة قصر المنتزه وبلاج عايدة بالتحديد ، وهناك اكتشفت اللجنة أن المسئولين عن الصرف الصحى بشرق المدينة قاموا بفتح المصب البحرى المجاور لسور قصر المنتزه بعد أن حدث كسر بخط الطرد الرئيسى لشارع

النبوى المهندس بحى المنتزه والمندرة والرأس السوداء فى مياه شاطئ عايدة الذى ظهر به التلوث الحاد ، واستمر التلوث فترة بفعل التيارات البحرية وليدق ناقوس الخطر ، وهناك كابينة فى شاطئ عايدة تقوم بصرف مخلفاتها داخل البحر مباشرة ، الأمر الذى يجعل المنطقة التى تصرف فيها ملوثة ، ولقد زارت اللجنة مصب شاطئ المندرة ووقفت أمام فوهة المصب ، واتضح أن هذا المصب مغلق ، ولكن هناك روائح كريهة! وقد اعترف المصطافون لأعضاء اللجنة أن هذا المصب يقوم بقذف المخلفات ليلا» إلى هنا ينتهى ما نقلته من جريدة الأخبار.

وأرجو ألا يقول لى أحد إن مجلس الإدارة الذى يعدنا بإنشاء مصيف عالمى فيه مسرح للأوبرات لم يكن على علم بكافة المواسير عندما تحدث إلينا عن عجائب مصيفه المرتقب ، ولا يجوز ألا يعلم ، وما الذى يجعل أمثال أولئك الرجال يتحدثون إلينا بهذا الأسلوب؟!

السبب هو: أنهم يحسبون أننا مازلنا بعد أطفالاً!

وفى كل يوم تصريحات ووعود ، وفى كل يوم فيه أمل ونكسة وأشياء تملأ القلب حسرة ، لأن الكثيرين جدا من المسئولين لا يحترمون الناس ، ويحسبون أنهم – بصفتهم أصحاب مراكز كبيرة – لهم الحق فى أن يعتبرونا أطفالاً لا نعقل ولا نفهم ولا نذكر.

ويغيب عن هؤلاء جميعا أن هذا الشعب لم يكن فى يوم من الأيام – ولا يمكن – أن يكون طفلا. إننا نرى كل شىء ونعرف كل شىء. بل نعرف من الحقائق أكثر بكثير مما يعرف عنها أولئك الذين يستهينون بعقولنا.

فى أوائل الستينات اشتد النزاع بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر حتى تعرضت البلاد لأسوأ الأضرار من جراء تنافس الاثنين على السلطان: وكان مما لجأ إليه عبد الناصر ليظهر أمام الناس بأنه يميل إلى الحرية ويتجه إلى استفتاء الناس فى أمور البلد أنه دعا إلى إنشاء لجنة

تأسيسية سماها لجنة حوار تتكون من أكثر من مائتى شخص أغلبهم من المثقفين. وهذه اللجنة انقسمت إلى لجان فرعية كانت تجتمع فى مجلس الشعب. وعبد الناصر كان يحضر اجتماعات اللجان ويشترك فى المناقشات متظاهرا بأنه ديمقراطى أصيل ، وانتهى الأمر بإصدار ما سموه ميثاق العمل القومى أو الميثاق. والميثاق نشر فى الصحف ، والصحف هلّلت بأن عصرًا جديدًا فى الحرية والنهوض القومى قد أطل على مصر بعد طول عذاب وانتظار. والميثاق طبع فى كتيب ووزع على المدارس والجامعات ليدرسه الطلاب. واستدعونى من مدريد للنظر فى ترجمته إلى الإسبانية كما قام غيرى بالنظر فى ترجمته إلى لغات أخرى حتى يذاع فى الدنيا كلها.

وكان رئيس مجلس الشعب فى تلك الأيام صديقًا قديمًا من أساتذة الجامعة سأكتفى بالإشارة إليه بحرفى ل.ش وكنت مرة داخلاً إلى مجلس الشعب أثناء دراسة المجلس للميثاق إذ وقفت لى عربة هذا الرئيس العظيم وطولها عشرة أمتار ، ورئيس مجلس الشعب المبجل يطل على من النافذة ويحيينى ويدعونى إلى الركوب معه. وبعد تبادل التحايا دخلنا المجلس تحيط بنا صفوف الجنود والحراس والموظفين - لسيادته طبعا لا لى - وأراد أن يرينى عظيم ما يقوم به فطاف بى بقاعات المجلس وفيها لجان مجتمعة يتناقش فيها ناس ويتدارسون ، وسيادته يقول بكل فخر: هذه لجنة الشئون الاقتصادية ، وتلك لجنة الشئون الخارجية ، وهذه لجنة الزراعة وتلك لجنة المرافق أو التعليم. وبينما كان سيادته يفرجنى على هذا المهرجان وينتقل بى من قاعة إلى قاعة يحيط به الحشم والسكرتاريون كنت أنا أشعر أنه يسخر منى. وشىء ما فى قلبى كان يقول لى: هذا كله تهريج ولعب بالعقول ، والغرض من ذلك هو إيهامنا بأنهم يعملون شيئا لصالح هذا الشعب. وكان سيادته ممثلا بارعا يعرف كيف يظهر بمظهر الجد الخالص تأكيدا لما حسب أننى صدقته من إنه رئيس مجلس شعب حقيقى عظيم ، بل لم تكن فى نفسى ذرة من التصديق بأنه كان هناك إذ ذاك مجلس نواب أو مجلس عفاريت أصلا. وانتهت الزيارة وخرجت وأنا

أتعجب من أمر هذا الرجل الذى يحسبنى طفلا ويخاطبنى – ويخاطب المواطنين جميعا – على أننا أطفال. ويتصور أننى أصدقه وعندما قصصت ما رأيت على بعض من كنت ألقى وجدتهم جميعا مثلى يفهمون كل شىء ، ويعرفون أن هذا كله ضحك على الذقون فيما عدا صحفى كان كبيرا جدا فى تلك الأيام وكانت لى به إذ ذاك صلة ، وكان صديقنا الدكتور ح. ف. يقول لنا إنه «البرين تراست» بتاع الراجل الكبير أى ذهنه المفكر. وهذا الصحفى كان يخاطبنى معظمًا لأمر الميثاق يحسبنى طفلاً ، وكان يدبج المقالات العصماء يخاطب الناس فيها على أنهم أطفال.

وبعد سنوات قرأت فى ص ٢٠٩ و ٢١٠ من كتاب «البحث عن الذات» للرئيس السادات ما دلنى على أننا بالفعل لم نكن أطفالا ، وأن الأطفال حقا كانوا هم أصحاب الميثاق ومهزلته ، ولكنهم كانوا أطفالا أشرارا. وفى ذلك يقول السادات: «فقد كان الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس همومهم ويسعى إلى حل مشاكلهم ، ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى اللجنة بإصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها وسياستها. فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصبا على عدم وجود أى منهج. وفعلا وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومى الكبير الذى عقدناه. وقرأه مادة مادة ، وصدق عليه الحاضرون ، وحقق بعض الغرض من صدوره. فقد شُغِل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم النواحى الأيديولوجية التى كان يحتويها ، فى هذه الأثناء كان التنظيم السياسى موجودا ولكنه بالتعيين بالانتخاب فهو أعرج لا يملك من أمر نفسه الكثير ، لذلك نجده لا يقوى على أن يضع الميثاق موضع التنفيذ. لقد صدر الميثاق فعلا ، وأصبح يدرس فى منظمات الشباب والجامعات ولكن شيئا مما نص عليه لم ينفذ.

ومن سنتين كنت فى لندن وكان الوقت شتاء وزرت مكتبة الشروق وهى من مفاخر منشآتنا الثقافية يرجع الفضل فيها إلى صديقنا الناشر القدير الأستاذ المرحوم محمد المعلم وأخرج منها حاملاً بعض الكتب لأجد المطر

ينهمر واحتمى فى مدخل بيت ، وأنظر فإذا إلى يسارى إنسان ضئيل حزين الوجه ينطق بالمرض وأحس أننى أعرف هذا الوجه وأسمع صاحب الوجه يقول:

– فلان؟

والتفت فأرى صاحبنا رئيس مجلس الشعب العظيم صاحب الهيل والهيلمان وقد فارقه هيله وجلاله ولم تبق منه إلا بقية صفراء سوداء مرضاء، وأسمعه يقول ألا تعرفنى؟!

ومن يغيب عند وجهك أيها العزيز. ماذا بك؟

مريض كما ترى يا صاحبى عندى الكبد والرئة وأمراض أخرى أتداوى منها هنا..

وما الذى أوصلك إلى ما أنت عليه بعد العز والسلطان الذى كنت فيه؟

أكلونى لحما وألقوا بى عظمًا.

قلت شفاك الله يا أخى وشفى كل مريض.

هذا كل جزائى منهم.

لا تؤاخذنى أيها العزيز إنه فى الحق لجزاء عادل ومعاذ الله أن أتشفى فى أحد ولكنى أقول لك والله يا أخى ما أخذوك لحما ولا ألقوك عظما وإنما أنت كنت عظما طوال حياتك ثم اكتسيت اللحم من متاعب هذا الشعب وآلامه ، كلكم كنتم تخدعون هذا الشعب وتحسبونه طفلا وهو والله ليس بطفل إنه يعلم كل شىء ولكنه مسكين تعب من الكلام ، وانتهى به الأمر إلى الاستسلام لقدره السيئ. ماذا كان ضرك يا أخى لو لزمت وظيفتك الجامعية وسرت فى طريقنا نحن المواطنين الذين نجد سعادتنا فى خدمة هذا البلد بالقيام بواجبنا ، ولكنكم رجال خداع وسياسة. والطمع يجرى فى دمائكم وأنتم والله كنتم ثلة غبراء ولكنا كنا نعرفكم واحدًا واحدًا. وشعب مثل شعبنا المصرى لم يولد بالأمس إنه شعب طويل العمر تعاقبت

عليه القرون والتجارب السوداء وعرف من ظلم الفاطميين والمماليك والأتراك والبكوات وهمّ الزمان ما يفيض به الكيل. ومثل هذا الشعب قد يسكت ولكنه لا يغفل ولا يستضعف ، وقطعا يجيء اليوم الذى يعرف كيف يأخذ حقه ممن غصبوه وظلموه.

□□□

وإلى بعض المسئولين ممن لا يزالون يصدقون ما تميل إليه نفوسهم من السخرية بعقول الناس وتفريحهم بالوعود أقول لهم: احترمونا أيها الناس لكى نعرف على الأقل أنكم تستحقون الوظائف التى تشغلونها وقد تعبنا تعبا شديدا ونريد أن نرتاح ولكن أصحابنا لا يرتاحون إلا على متاعب الناس ، والبستانى العجوز يهمس فى أذنى ويقول:

– أتعرف إنهم بنوا للسيد الرئيس – بدون علمه – فيلا هائلة هنا فى المنتزه وعندما علم بأمرها غضب عليهم ولامهم لومًا شديدًا ورفض أن يدخلها؟!

وغلب على ظنى إن هذه إشاعة وأن هذا الخبر يشبه ما تحدث عنه صديقنا الأستاذ إبراهيم سعدة فى أخبار اليوم من الأقاصيص التى تختلق وتروى ويصدقها الناس وأقول له: يا أخى إن الناس معذورون إذ يصدقون مثل هذه الأخبار فإنهم نادرًا ما يقولون لهم الحقائق وإنما يتركونهم فى شك وحيرة. وأنا شخصيًا كنت أسمع قبل السد العالى أن كيلو واط الكهرباء سيكون بعد السد بخمسة مليمات والنتيجة أننى أدفع اليوم فى الشهر الواحد أربعين جنيها استهلاك كهرباء فى المتوسط كأن بيتى ورشة أو وابور طاحون ، ولا أحد يشرح لى أو يفهمنى وكل ما يقولونه لك أدفع ثم قدم شكوى! وأن هذا هو الكومبيوتر والكومبيوتر فى علمهم لا يكذب وأنا أعرف أن الكومبيوتر لا يكذب ولكنه يضطرب فى أيدينا ويسىء الحساب، لأننا لا نعرف كيف نستعمله وأنا لهذا أدفع ولا أشكو لأننى أعرف أننى

إذا شكوت من الآن إلى يوم القيامة فلن يرد علىّ مسئول لأنهم جميعا يعتبروننا أطفالاً! ومن سنتين انتهيت من محاسبة الضرائب وتبين أننى دفعت أكثر من ٤٠٠ جنيه زيادة وقالوا لى!

– اكتب طلب استرداد وسيصلك المبلغ فى بيتك بعد أسابيع والطلب كتبته ولكن المبلغ – وهو حقى – لم يصل خلال أسابيع أو سنوات والداخل فى خزائن الدولة مفقود لأن الذين يقومون على هذه الخزائن لا ينظرون إلينا على أننا مواطنون مثلهم بل هم سادة ونحن رعايا. وواحد من أبناء أصدقائنا دفع الجمارك ألف جنيه زيادة وتبينوا خطأهم وطلبوا إليه أن يكتب طلب استرداد وكتب الطلب وانتظر فلم يصله شىء ، ومضى يجرى من مصلحة لمصلحة ومن موظف لموظف حتى أدركه اليأس فى النهاية وسأل العوض من الله.

أيها السادة ، والله ما نحن بأطفال ولا كنا قط أطفالاً ، إنما نحن ناس نرى كل شىء ونفهم كل شىء ولا نحب أولئك الذين يعتبروننا أطفالا ، أجل نحن نعانى ونصبر ، وأى صبر مهما طال فله حدود ، واذكروا أمر صاحبنا الذى قضى نصف عمره يضحك علينا فكان عليه بعد ذلك أن يقضى نصف عمره الثانى يبكى على نفسه ويقول: أكلونى لحما ورمونى عظما ، وما كان عنده فى يوم من الأيام لحم ولا دم، إنما هو عمره كله عظم إلى أن يصبح فى يوم من الأيام رميمًا.

(١٦)

الجهاز الحكومى .. والخراطيم «الدايبة»*

دعانى بعض قراء مجلتنا «أكتوبر» إلى غداء. لم أكن أعرف من الداعين أحدا ، ولكن كانت تجمعنا منذ البداية تلك العاطفة القومية التى تجعل المهتمين بأمر هذا البلد يشعرون دائما بالقلق على المصير ، وكلما زاد حبك لوطنك زاد قلقك عليه ، وهذا هو الذى حرك هذه الجماعة من الأصدقاء إلى دعوتى ، فلم يكن الغرض فى الحقيقة أن يجدوا عندى حلولا لمشاكل تؤرقهم ، فلا أنا ولا غيرى. نملك مفاتيح للمعضلات أو أدوية للأسقام القومية ، وإنما الحلول تأتى من الحوار الجاد الهادئ ، والآراء عندما تتلاقى تجود وتنصقل وإذا هى لم تصل إلى حلول حاسمة أو واضحة فهى على الأقل تفتّح جوانب المشاكل ، وهذه ولا شك خطوة لابد منها للعثور على الحلول.

إن مشاكلنا القومية كثيرة جدا وهى معقدة بشكل غير معقول ، ونحن مع الأسف الشديد شعب لم يتعلم الحوار الهادئ ، ونادرا ما يخطر ببالنا أن نجتمع لنناقش مشكلة أو نجلس معا برغبة صادقة فى العثور على حلول ، وفى الغالب نحن أحد رجلين رجل يقف أمام المشكلة وينظر إليها مستسلما على أمل أن يحلها الله سبحانه أو فى انتظار أن تحل هى نفسها بنفسها ، أو رجل يعيش عمره كله فى انتظار المهدى المنتظر وأنا شخصيا لست من أولئك الذين ينتظرون المهدى المنتظر ، وقد انتظرناه مرة وجاء وكان اسمه جمال عبد الناصر فحرمنا أن نفكر فى أى مهدى منتظر آخر ، وبلد مسكين مثل بلدنا كفاية عليه مهدى منتظر واحد.

ومن البداية قلت لأصحاب الدعوة ذلك ، حتى لا تكون المسألة مجرد غدوة ممتعة أو غير ممتعة ، وقد سرنى أن كان بينهم نائب من نواب

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٥ سبتمبر ١٩٨٥م .

الحزب الوطنى ، وأنا شخصيا عضو فى الحزب الوطنى بل أنا عضو فى إحدى لجانه وهى اللجنة العلمية التى أنشأها صديقنا العزيز الدكتور صبحى عبد الحكيم قبل أن يصبح رئيسا لمجلس الشورى ، ولكنى أقول الحق لم أحس فى يوم من الأيام بهذا الحزب الوطنى الذى أنتمى إليه ، طبعا أنا أقرأ عنه فى الصحف وأرى بعض نوابه فيما يعرض علينا التليفزيون من صور حية من مجلس الشعب ، وهذا كل ما أعرفه عن الحزب ، وربما كانت الصلة الحقيقية الوحيدة بينى وبين هذا الحزب هو أن رئيسه هو السيد حسنى مبارك وهو فيما أعتقد الغطاء الذهبى الذى يضمن هذا الحزب فى نظر الجماهير.

أقول إننى سعدت فعلا أن يكون بين أصحاب الدعوة هذا النائب لأننى كنت أريد أن أستطلع رأيه ، أو أتعرف من خلال كلامه ملامح أيديولوجية حزب الأغلبية الذى يتولى مصائر بلادنا الآن ، ولم يكن الحزب موضوع الحوار أو أحد موضوعاته ، ولكنى فوجئت عندما سمعت هذا النائب يتكلم فقد بدا لى متشائما جدا ويائسا جدا ، بل هو أكثر شعورا بالحيرة والضياع منا ، ومن كلامه فهمت أن الصلة الوحيدة بينه وبين الحزب هى أنه عضو فى مجلس الشعب عن طريق انتسابه إلى الحزب.

وعلى هذا الغداء فى مطعم سمك فى أبى قير دار حديث طويل وكل من الحاضرين قص حكايات وتجارب وكان فيهم طبيبان ومحام ومهندس واثنان من المقاولين وصاحب مصنع نسيج وعضو مجلس إدارة أحد البنوك وهو النائب الوطنى ، وكلهم كما ترى مياسير وفيهم ثلاثة على الأقل أثرياء وعلى اختلاف المشارب ووجهات النظر فقد تجلى لى بوضوح أن بلدنا يعانى عللا حقيقية عميقة متأصلة الجذور ، وحتى أكثر الناس تفاؤلا أو حماسة للنظام لا يستطيع أن ينكر أن البلد يعانى حالة ماليز Malaise ولا أجد ما أترجم به هذا اللفظ إلا بلفظ «قريفة» قريفة نعانيها كلنا على

درجات متفاوتة بحسب الإحساس أو المزاج والظروف والوضع الاقتصادى والاجتماعى والمسئولية والسن.

□□□

وقد سمعنا خلال هذه الجلسة حكايات كثيرة كلها تعين على تفهم طبيعة هذه الحالة المرضية التى نعانيها ، وهى فى الحقيقة ليست مرضا واحدا أو علة محددة ، ولكنها حالة مرضية عامة تشمل الكيان كله تستطيع أن تقول بلغة الأطباء إنها سيندروم أو ماليز سيندروم ، وإليك حكاية حكاها واحد من المقاولين أعتقد أنها تصور لنا هذا السيندروم ، الرجل مقاول طرق وإنشاءات مختلفة ومجال عمله فى إحدى المحافظات وقد رست عليه مناقصات إنشاء طرق وما يتبعها من الكبارى والأنفاق تصل جملة تكاليفها بحسب الأسعار التى رست عليها المناقصات فى حدود ثلاثى أرباع المليون ، ومن ثلاث سنوات والرجل يقدم المستخلصات أو المطالبات ولكن الدفع متوقف بعد دفعتين صغيرتين يصل مجموعهما إلى ٨٠ ألف جنيه ، والرجل عنده جرارات وجرافات وبولدوزرات وسحاجات وعربات نقل وأدوات كثيرة مكلفة ، وعنده عمال لهم أجور عالية وسائق البولدوزر الآن يصل أجره فى اليوم إلى ٢٠ جنيها وسائق الجرار بين ١٢ و١٥ جنيها ، ومال الرجل معطل ، وقبل السنة المالية كانوا يقولون له إنهم سيدفعون عند مجىء الاعتمادات الجديدة وإن المحافظة طلبت ثمانين مليون جنيه لسداد ديونها ووافقت الحكومة ، وعندما جاءت الاعتمادات تبين أن المحافظة لم يخصها فى بند المنشآت إلا ١٩ مليون جنيه بينما ديونها تزيد على المائة لأن المحافظ الجديد عندما تولى توسع فى الإنشاء ، فأعلن عن طرق وترع ومصارف ومبان ومزارع سمكية وأشياء أخرى كثيرة ، ومجلس المحافظة لا يناقش سعادة المحافظ ، والمشروعات أعلنت والمقاولون تقدموا ورست العطاءات ، وبدأ العمل ، والمحافظ الهمام الذى لم يحسب حساب السداد نقل إلى وظيفة أكبر ، ورئيس الوزراء الذى تمت

الاتفاقات معه انتقل إلى رحمة الله والرئيس الجديد لابد أن يدرس ومجلس الوزراء وما يتبعه من لجان أمامهم من المشروعات جبال.

وكلها مشروعات لم تدرس دراسة كافية ، وبعضها يعارض بعضا. كل هذا والدفع متعطل وأموال الرجل معطلة ، ولا أحد هناك يستطيع الحل ، وقد تعودنا فى السنين الأخيرة عادة سيئة جدا ، وهى أن كل مشاكل أى مؤسسة أو هيئة أو محافظة أو وزارة لا يحلها إلا رئيس مجلس الإدارة أو المحافظ أو الوزير ، ولا أحد من بعده أو من دونه يحل أو يربط . وسعادة الوزير المحافظ يقول إنه غير مسئول عن هذه المشروعات وحتى لو كان مسئولا بصفته الوزير المحافظ فإنه خزانة المحافظة خاوية ، ويادوبك تكفى لرواتب الموظفين والعمال وأعدادهم فى زيادة.

ثم إن أدوات الرجل وماكيناته تتلف وتستهلك شيئًا فشيئا ، والعمال متمردون وضبطهم عملية فى غاية العسر ، والخفير الذى تعينه يتبين لك بعد قليل أنه حرامى ، وتضبطه متلبسًا ويحال إلى المحاكمة ولكنك لا تستطيع أن تفصله أو توقف مرتبه - أو علاواته وحوافزه - إلا بعد الفصل فى القضية ، وفى ذات مرة قال له ضابط المركز الذى طلب إليه أن يحرر محضرا لعامل لص:

- شوف يا سعادة البيه. لو أننا أحلنا إلى المحاكمة كل عامل يضبط متهما لكان علينا أن ندخل كل عمال المحافظة السجن ، ونحن فى هذا المركز ستة ضباط ومعنا اثنان من وكلاء النيابة ، ونحن لا نستطيع رفع رءوسنا من كثرة المحاضر والتحقيقات ، ونصف المتهمين هاربون ولابد من البحث عنهم ، والخفر هنا لا رجاء فيهم ، وأنت لا تدرى إن كانوا يبحثون عن الهاربين أو يساعدونهم على الهرب ، والشاويش يخرج فى مأمورية ويغيب ثلاثة أيام ثم يعود إليك ويقول لك إن المتهم بلعته الأرض. ونحن قد وضعنا أصابعنا فى الشق ، ومن رأيى يا سعادة البيه أن تطلب العوض من الله فيما ضاع وتحافظ على الباقى. وهب أننا عثرنا على المتهم وحاكمناه وحبسناه فماذا ستستفيد من حبسه؟!

فماذا يفعل الإنسان أمام إدارة هذا حالها؟ بل هناك ما هو أعجب ، وهو أن هذه المحافظة فى عهد محافظها الهمام قررت إنشاء مزرعة سمكية ، وحكاية المزارع السمكية هذه أصبحت موضة ، لأن نهر النيل كله والبحرين الأحمر والمتوسط لا تقدم لنا موارد سمكية كافية. المهم أن المحافظة قررت إنشاء مزرعة سمكية ، وأقبل الفنيون إياهم وقاموا بتحديد مكان المزرعة وحفروا الأرض على مساحة عشرين فدانا ، وأنشأوا مبانى للعمال ووضعوا مواسير ماء وملأوا الحفر بالماء وأتوا بزريعات السمك وألقوا بها فى الماء فمات معظمها. لماذا؟ لا أحد يدرى. وهناك خمسة بيطريين وتسعة مهندسين زراعيين ولكن لا يوجد كيلو جرام واحد من السمك. وبعد أن أنفقوا نحو ثلاثة ملايين قرروا صرف النظر عن المزرعة السمكية ، والمحافظ الجديد قال: نردم الأرض ونعيدها أرضا زراعية ونزرعها أو نقيم فيها مزارع دواجن ، وكله بروتين! والأرض ردمت والمصاريف ضاعت ولم تزرع الأرض ولا أنشئت مزارع دواجن ، لأن وزارة الحكم المحلى أمرت بالتحقيق فى الموضوع والتحقيق أمامه سنوات والمقاولون الذين قاموا بالحفر وإنشاء المصارف والمبانى والمواسير يقولون إنهم خسروا ملايين ، ولا أحد يدرى إن كانوا خسروا ملايين أو كسبوا ملايين. على أية حال فإن ملفات هذه المزرعة التى تريد وزارة الحكم المحلى أن تحقق فيها وضعت فى جراج ، والجراج امتلأ بها إلى السقف وزاحمتها الفيران ، ومن سيقرأ هذا كله ، ومن سيحقق فيه؟ والفنيون الذين اشتركوا فى العمل ذهب أربعة منهم إلى السعودية والإمارات وعمان ، وبعضهم انتقل إلى إدارات أخرى أو المجمعات الاستهلاكية أو شركات القطاع العام ، وأرض المزرعة تحولت بالفعل – إلى مزرعة فيران!!

□□□

ونحن لم نتناول فى هذا الحديث – إلى الآن – موضوع السرقات والاختلاسات والرشاوى ، وهى وحدها داء وبيل ، ويكفى أن أقول لك – على عهدة مقاول الطرق الذى حدثتك عنه ، وهو صادق فيما بدا لى – إن

المائة ألف جنيه التى صرفوها لـه على حساب العمليات صرفوها على دفعتين: واحدة أربعون ألفا والثانية ستون ألفا وإليك إجراءات الصرف «الرسمية» التى اتبعت فى الحالتين:

بعد الجرى شهورًا بين ديوان المحافظة والإدارة المالية ووزارة الحكم المحلى ووزارة المالية ووفق على صرف دفعة على الحساب قدرها أربعون ألف جنيه ، ولم يبق إلا أن يقوم الموظف المسئول فى الإدارة المالية بتحرير الشيك ، والموظف المسئول هذا طال الجرى وراءه حتى أمكن «حصاره» ومقابلته فى مبنى الإدارة ، وعند صرف الشيك الثانى وقدره ستون ألفا اتبع وقال إنه سيطلع على الملف والقرارات ويقوم بتحرير الشيك فى يوم معين. وفى اليوم المعين تغيب عن المكتب بسبب المرض ، وسكرتيره أو مساعده نصح المقاول بأن يطل عليه فى منزله. «والراجل عيان ويصح برضه تزوره» وذهب المقاول ودخل عليه فى غرفة نومه ، وسواء أكان المرجل مريضًا أو غير مريض فقد كان فى السرير وعلى الكومودينو إلى جواره علبة أدوية وحقن.

«ومش عارف جنبى فيه إيه يا أخى! وغلبت حكما وأدوية ، والحكاية دى بقى لها سنتين وكلفتنى مئات! ويقولون إن هذا المرض لا يعالجه إلا طبيب جراح إنجليزى ، وهذه حكاية تتكلف ألوفًا ، ومن أين لمثلى الآلاف والحال كما ترى؟ وولدان وبنت فى الجامعات والرابع فى الثانوية العامة ، وألفان من الجنيهات والله - ومالك علىَّ حلفان - ضاعت فى الدروس الخصوصية وباختصار «عاوزين فلوس. ووالله لولا المرض!» وهذه الفلوس ألوف. ودخلنا فى الموضوع. والمريض نهض من فراشه وجلس على الكنبة وأخذ إجازة من المرض. ومن هنا إلى هنا تم الاتفاق على ثلاثة آلاف من الجنيهات تدفع فى المنزل قبل تسليم الشيك. والعملية كلها ستتم فى البيت بعيدا عن الموظفين والسعاة والدوشة ، والحيطان لها آذان. وفى يوم التسليم والتسلم أصبحت الثلاثة آلاف ستة آلاف ، شىء لمدير الحسابات وشىء للوكيل وشىء لفلان وشىء لعلان ، وسيادتك عارف والناس أعذار!

وبعد الدفع بالتمام والكمال ، وتناول الرجل الشيك بعد أن وقع فى عشرين موضعا ، تبين أن الحكومة أيضًا خصمت ألفين وخمسمائة وكسورًا دمغة ودفاعا ورسوم بلدية ورسوم هباب وبلاوى والأربعون فى النهاية أصبحت ثلاثين ، والحكومة إذا أعطتك خمسة مليمات خصمت مليمين دمغة ، ولو كانت لك عند الحكومة ليمونة فلابد أن يثقبها الموظف المختص بإبرة ويمص منها – ومن أعجب ما حدث أن المقاول – بعد أن استلم بقايا نقوده وذهب إلى مبنى الإدارة المالية لشأن آخر هجم عليه جيش من الفراشين وكل واحد يطالب بالبقشيش.

الموظفون إجراءات مشابهة ولكن الخبث أصبح أكثر تعقيدًا ، حقًا كانت هناك حكاية المرض والعملية التى لابد من إجرائها فى إنجلترا وأعضاء المافيا أصبحوا أكثر ، ولكن صاحبنا المقاول تعلم من الدرس الماضى والخصومات من الشيك أصبحت ألفا ومائتى جنيه فحسب ، لأن الحكومة ألغت أشياء كثيرة ، والأتاوة فى مجموعها بلغت ستة آلاف من ستين ألفا ولله الحمد ، وكان هناك موظف ثعلبان يزعم أنه يساعد فى إجراءات الصرف وقد تعب منه المقاول» وقرف ، وبلغ مجموع ما أخذه ستمائة جنيه ، وبقيت له فيما قال أربعمائة يأخذها بعد صرف الشيك والمقاول انتظره فى جراج الجرارات وعندما دخل انهال عليه عماله حتى أصبح كما يقول الأمريكيون بيضة مقلية مضروبة (سكرامبلداج)!

□□□

عندما أسمع أمثال هذه الحكايات أتصور الجهاز الحكومى فى هيئة رجل مطافئ يقف أمام حريق وفى يده خرطوم ولكن الماء لا يخرج من الخرطوم إلا فى هيئة سرسوب ضعيف لأن الخرطوم كله ثقوب والماء الذى يندفع من حنفية إطفاء الحريق يتبدد فى كل سنتيمتر ويصل إلى كل مكان إلا إلى الحريق ، والنار تشتعل ورجل المطافئ موجود وحنفية الحريق موجودة ولكن الماء لا يصل ، ويظهر أن كل خراطيم الجهاز الإدارى حافلة

بالثقوب وأحيانا تجد الثقوب ولا تجد الخرطوم. وفى ذات مرة – من سنوات طويلة – كنت وكيل مدرسة ابتدائية فى الأرياف بالانتداب وكنا نقدم وجبة الغداء للأولاد وكانت شكوى الأولاد من الطعام شديدة ومتصلة وكنت أنا أدهش لأن ضابط المدرسة كان يأتينى فى غرفتى بغداء أكثر من محترم ويقسم لى أن هذا هو نفس غداء الطلاب ولكنهم يا سعادة البيه نماردة مفاجيع لا يشبعون. وبحثت وسألت حتى علمت أن متعهد الأكل يأتى به كل يوم فى الساعة الخامسة صباحا ، كان يصلى الصبح حاضرا ثم يأتى بعربة التموين إلى المدرسة ويتسلمها منه ضابط المدرسة والسكرتير ورئيس الفراشين ولست متأكدا من أن هؤلاء السادة الثلاثة كانوا يصلون الفجر حاضرا قبل التسلم ، وكانت أنام فى المدرسة فصليت الفجر ونزلت إلى المطعم قبل وصول الموظفين والمتعهد ، وبعد ربع ساعة ظهر ضابط المدرسة والسكرتير وشيخ الفراشين ، ثم وصلت عربة التموين ومعها المتعهد ورأيت العجب : اللحم ربع المقرر ومن أرخص صنف والطماطم ثلث المطلوب وهى أردأ وأصغر طماطم رأيتها فى حياتى وكذلك الخضراوات والخبز فى حجم سندويتشات الفول فى أيامنا هذه ، ومن أغرب ما اكتشفت أن المتعهد عليه أن يأتى كل يوم بنصف صفيحة سمن بلدى وأربعة أقساط لبن كبيرة لأن المفروض أن كل ولد كان لابد أن يشرب كوب لبن فى اليوم ، وكان هذا أمرا من الدكتور السنهورى رحمه الله وكان وكيلا لوزارة المعارف ، وهو الذى عيننى مدرسا ثم وكيلا للمدرسة والصفيحة وصلت وكذلك أقساط اللبن ولكنها كلها مملوءة ماء ومن بعيد يقول المتعهد: يا دبوس أفندى جبت لك الديك الرومى والجوز واللوز اللى أنت طلبتهم.. يا عبد الملاك أفندى جبت لك الفخذة الضانى اللى طلبتها علشان عيد ميلاد الست هانم وتعيين البيه الوكيل أهه جوز فراخ وطبق عسل أبيض بالقشطة حار ونار فى جتته! (والوكيل هو أنا).

وبرزت لهم من الظلام . وكنت أيامها لا يزيد وزنى على ٤٥ كيلو جراما ومع ذلك فقد ارتعبوا منى ارتعابا!! جعلنى أشعر أننى عملاق

ونـاديت رئيـس الفراشـين ومـن حضـر منـهم وضبطـت الواقعـة واتخذنـا الإجراءات الحاسمة مع هؤلاء اللصوص وأيامها كان يمكنك فصل سكرتير مدرسة أو كاتب مدرسة مرتشيين ، وكان يمكنك أن تشطب متعهدًا فاسدًا كهذا من سجل المتعهدين وتغريمه مبلغًا طائلاً ، كان هنـاك قـانون ونظـام وحزم وعزم ولم تكن خراطيم الجهاز الحكومى قد امتلأت بالثقوب. كنـت تستطيع إطفاء الحريـق فـى تلـك الأيـام أمـا اليـوم وبـالخراطيم الدايبـة فلا تستطيع أن تطفئ عود كبريت.

□□□

هل تذكرون ما كتبته العام الماضى عن خيبة نتائجنا فى أوليمبياد لوس أنجيليس؟ يومها نبهت علـى حريـق خطـر يـهدد مسـتقبل تربيـة شـبابنا الرياضية ، وقلت إن شباب مصـر يحتـاج إلى أيـد جديـدة تعنـى بـه وإلى سياسة جديدة لرعاية مستقبل الرياضة البدنية عندنا ، ولكن أحدا لم يأخذ الموضوع مأخذ الجد ، والخراطيم الدايبة لم تطفئ الحريـق ، والتدهـور زاد وعاد ، وفى العام الماضى على الأقل كسبنا بطولة أفريقية ، أما هذا العـام فحتى هذه لم نصل إليها ودول المغرب الأربع نجحت فى تصفيات أفريقية أما نحن فقد غرقنا فى مياه البحر وانتكسنا ، وليت الأمر وقف عنـد هـذا الحد بل أقمنا بطولة دورى أفريقيـة فى أغسطس وخرجنا بنتيجة مخجلة، ومصر التى كان ينبغى أن تكون أول دولة فى أفريقية خرجت السابعة ولم تفز إلا بميدالية ذهبية واحـدة وثـلاث فضيـات وثـلاث برونزيـات، بينمـا نيجيريا مثلا خرجت بخمس وعشرين ميدالية منها ١١ ذهبية. وعاد الناس إلى بلادهم بكئوس الذهـب والفضـة وعدنـا نحـن علـى العـادة - بكئـوس الدموع ، والخراطيم الدايبة تعمل أكثر من ذلك وخيبة الأمل راكبـة جمـل وأرجوك ألا تسألنى عن اسم الجمل فقـد قلنـا فـى المـاضى أقـل مـن ذلـك فقالوا: اطلعوا من البلد. وأنا لا أريد أن أطلع من البلد!!.

(١٧)

أخلاق الفقر .. وأخلاق الغنى*

فى بلادنا العزيزة – ونتيجة لتربية سيئة هزيلة فقيرة فى بلد فقير – عندما ينجح مواطن وينشئ مشروعات ناجحة وتحقق أرباحا كبيرة، فإن الهاجس الطبيعى الذى يتردد فى خواطر معظم الناس هو: حرامى! والعاطفة التلقائية فى قلوب معظم الناس حياله هى الكراهية والحسد وتمنى زوال النعمة، لأننا فى الحقيقة شعب فقير جدًا، والفقير هنا ليس فقر المال فحسب، بل هو فقر الروح والفكر، وإذا كان تعدادنا فيما يقولون بين ٤٢ و٤٥ مليونا فإن من المؤكد أن ما بين ألفين وثلاثة فحسب فى هذا العدد الضخم يمكن أن يقال إنهم أغنياء، وحوالى مليونين أو ثلاثة يتمتعون برخاء أو يسار، والباقى – صدقنى – تعساء على درجات متفاوتة من التعاسة، والذى يخفف من بشاعة هذه التعاسة أننا اعتدناها وعرفنا كيف نعيش معها وبها. أو لجأنا إلى أساليب خسيسة للتخفيف من وقعها، أساليب تتراوح بين مد اليد والاختلاس.

والكثيرون جدا منا يفرجون عن أنفسهم بتعذيب الناس. فى أحد الأيام كنت فى مكتب موظف كبير فى المجمع الحكومى فى الجيزة. وهو مبنى رهيب حاشد دائما بالخلق يذكرنى ببرج بابل – وكنت أنتظر إمضاء قرار بتجديد رخصة بناء. وكان مع الموظف الكبير صديق له مدير أيضا ومكتبه يجاور مكتب صاحبنا، ويأتى فراشه ويقول له:

– الحاج عبد الصالحين ينتظرك فى المكتب.

فقال الرجل بسرعة وبطريقة تلقائية: قل له إننى خرجت لعذر عائلى طارئ، ولن أعود إلى مكتبى اليوم.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٥م.

ويقول له صديقه: ليه كده يا فلان؟ هذا الرجل أتاك إلى الآن نحو عشر مرات، والشيك الخاص به موقع من مدة، فأعطه إياه واخلص.

– يعنى إيه؟ عاوزنى أقوم أعطى سى عبد الصالحين هذا شيكا بمبلغ ٣٣ الف جنيه هكذا بكل بساطة؟

– أليس هذا حقه؟ هذا الرجل من أكثر المقاولين الذين تتعاملون معهم بأمانة، وقد أنجز المبنى المتعاقد عليه وتسلمتموه من أربعة شهور، والشيك فى درجك من ثلاثة أسابيع، وهذه ثالثة مرة يأتى وتتهرب منه.

– يعنى احنا نقبض ملاليم ونشقى فى سبيلها، وهؤلاء يقبضون الألوف هكذا؟

قلت له: أليس هذا حقه؟

– لن نقل شيئًا، ولكن ماذا يحدث له لو تأخر كمان.. عشرة أيام؟ إنه رجل غنى يملك العمائر والأموال، وماذا تكون ثلاثة وثلاثون ألفا إلى جانب ما عنده؟.. رايح جاى كما لو كان سيموت من الجوع!

– قم يا أخى وأعط الرجل ماله. إنه قد يكون غنيا فعلا ولكنه كما فهمت من صديقنا رجل أمين يعاملكم بالصدق، ولابد أن عليه التزامات ومسئوليات..

– يأتى غدا.. اليوم ليس عندى مزاج أعطيه..

– سألتك بمقام المصطفى الذى زرت قبره عندما حججت فى العام الماضى ألا قمت الآن وأعطيت الرجل شيكه.. لماذا تعذبون الناس؟

وخجل فى النهاية وقام وأعطى الرجل الشيك الخاص به. وصديقى الذى كنت فى مكتبه قاللى: لابد أن الحاج عبد الصالحين سيعطيه الآن مبلغا لا بأس به، ولكن تصور أن تلذذه بتعذيب الناس يفوق سروره بأخذ البقشيش.

– هذا معقول جدا فى بلدنا هذا، هذا الرجل معذب ولهذا فهو يعذب الآخرين. من المؤكد أن حياته مع زوجته وأولاده جحيم.

– إنه رجل مسكين كل مرتبه ١٦٢ جنيها وعنده ثلاثة أولاد فى الجامعة واثنان فى الثانوى.

– إننى اراه دائما فى مكتبك، ومن المؤكد أنه لا يؤدى من العمل ما يعادل راتبه، ثم إنه كما فهمت منك يتلقى (هدايا) أو بقشيشات بين الحين والحين، نحن شعب مسكين يا صديقى، شعب لا يعرف طريق النجاح أو معنى العمل الناجح، ولو فتحت قلوب معظم الناس عندنا لوجدت أن نصف ما فيها أطماع والنصف الآخر أحقاد. وهذه كلها جوانب من تفكير الفقر. أو الفكر الذى ينشأ فى ظلال الفقر..

□□□

ومن أسف أننا لا نعرف غير هذا الطراز من التفكير، ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكون النجاح فى مجتمعنا قليلا، وأقصد بذلك النجاح الحقيقى: النجاح الذى لا ينازع فيه فى المهنة، مثل نجاح طه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، وأحمد شوقى فى الأدب، ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفريد الأطرش، وعبد الحليم حافظ فى الموسيقى، وطلعت حرب، وأمين يحيى، وعبد المنعم القيسونى، و عثمان أحمد عثمان، وسيد اللوزى فى الاقتصاد والصناعة، والبدراوى عاشور، والمنشاوى، ومحمد هاشم فى الزراعة، والأخوين على ومصطفى أمين، وأيضا محمد حسنين هيكل ومحمود أبو الفتح وأنيس منصور فى الصحافة، وبقية هذا الطراز الرفيع من الرجال، وهؤلاء جميعا محسودون مرزأون يتربص بهم الكثيرون الدوائر كأنهم انتزعوا نجاحهم من عيون الآخرين، وعندما كان النظام الناصرى يصادر أموال الناجحين والأغنياء كنت ترى الفرحة والتشفى فى عيون التعساء، مع أن الناصريين لم يعطوا أحد شيئا مما نهبوا. كله انصب

فى جيوبهم، وما جمعته مصر من ثروة وما بنته من اقتصاد من أوائل هذا القرن إلى ١٩٥٢م خربه النظام الناصرى وجلس على تله، وهلل التعساء لذلك، وهنأ بعضهم بعضا مع أنهم ازدادوا بذلك فقرا، ومن المعروف أن الحقد ثروة الحاقدين..

ولنا صديق طبيب رمدى شاب شق طريقه بذكاء وعلم ونشاط وأنشا عيادة رمدية على آخر طراز، وهى دون شك فخر لمصر، وأسمع صديقًا يقول:

– لا تخدعك هذه المظاهر، كله تهويش.

– وما الذى لا يعجبك فى عيادة هذا الطبيب؟

– تياترو.. كله تياترو: سكرتارية ودفاتر وبنات فى الاستقبال وعلى التليفون ومواعيد ثلاثة اشهر مقدمًا، وأدوات رمدية كلها منظر وفى النهاية فواتير بمئات!

– نسيت الأهم: العلاج الصحيح والشفاء. لماذا لا تذكر ثمرة جهد الرجل كله؟ ثم أليس هذا هو النظام المتبع فى عيادات الأطباء فى البلاد المتقدمة؟ هل النظام عيب؟ وهل من الخطأ أن يكون لعيادة الطبيب أرشيف منظم ولكل مريض ملفه؟ وماذا تعيب على السكرتارية المنظمة؟

– أنت لم تر عيادة الدكتور فلان فى ميدان الأزهار؟ إن الناس هناك إلى الشارع والرجل لا يغادر عيادته إلا إذا رأى آخر مريض. أحيانا لا ينصرف إلا مع الفجر.. لا تياترو ولا مظاهر.

– طبعا، وهناك أيضا التلوث، تذهب إلى هناك بمرض وتخرج باثنين، وكل شىء بالبركة. الشفاء بالبركة والتلوث أيضا بالبركة، والله إنك لا تنفس على الدكتور فلان إلا النجاح، والنجاح عندنا جريمة تستحق العقاب.

وصديق آخر لنا دخل ميدان النشر دخولاً قويًا باهرًا ، وفتح ذراعيه للمؤلفين، ونشر ذلك فى إعلانات كلفته ألوفا، وتوافد عليه الناس وهلت تباشير توفيقه، وهنا تتحرك عقارب الغيرة وأخلاق الفقر، ويكتب ناس فى الصحف يحملون عليه، وواحد منهم بلغ به الحقد أن قال إن نشر مثل هذه الإعلانات سفالة!

معظم الناس عندنا يحبون الفشل والخيبة للآخرين، وعندما يخيب الإنسان يتفضلون عليه بالعطف والأسى: ده غلبان يا شيخ ربنا يعينه، دخله قليل وأولاده كثيرون وعيا وديون. رجل طيب ولكن بخته قليل!

وما هكذا أخلاق النجاح. وهناك بلاد كثيرة لا يؤمن أهلها بالخيبة، ولكنهم يؤمنون بالنجاح ويرونه فرضا واجبا على كل إنسان، ليس معنى هذا أن الحقد والحسد غير موجودين هناك لأن الحسد والحقد جزء من الطبيعة الإنسانية، وهما موجودان فى كل مكان، ولكنهما ليسا وباء شاملا كما هو الحال عندنا، وأهل البلاد الناجحة يفكرون فى الغالب تفكير نجاح، ولا يسألون الله زوال نعم الآخرين حتى يتساووا معهم فى الخيبة، أكبر مثل لذلك الولايات المتحدة، حيث تجدهم يعتبرون الناجح فى ميدان الاقتصاد مثلا بطلا قوميا، وأكبر مثال لذلك فى هذا العام المستربى لا كوكا رئيس مجلس إدارة شركة كرايزلر. وهذا الرجل الذى ينحدر من أسرة من المهاجرين الإيطاليين اسمه الحقيقى ليدو أنطونى لا كوكا، وهو فى الستين من عمره، وشركة كوايزلر التى يرأس مجلس إدارتها عمود من أعمدة الاقتصاد والصناعة فى أمريكا، ونحن نظن أنها شركة سيارات فحسب ولكن يكفى أن تعلم أن صناعة السيارات لا تمثل أكبر من عشر رأس مال الشركة، لأن كرايزلر تصنع محركات الطائرات والسفن والهليوكوبتر ونصنع أجزاء رئيسية من مركبات الفضاء والأقمار الصناعية والقاطرات وأشياء كثيرة جدا، ونحن الذين نهنئ أنفسنا إذا صنعنا علبة فول أو علبة فاصوليا لن نفهم قط معنى الصناعات الكبرى، ويكفى أن تعلم أن رأس مال

شركة مثل كرايزلر أو جنرال موتورز أو مارك أند هوايتهنى التى تصنع طائرات البيونج يزيد رأس مالها على مالية بلد مثل مصر، هنا تستطيع أن تتصور قيمة رجل مثل لى لا كوكا الذى تسلم إدارة الكرايزلر من سنوات قليلة، وهى على وشك الإفلاس، وعرف كيف يصلح الإدارة ويبتكر أفكارا أقامت الشركة على قدميها ووضعتها فى عداد الشركات الرابحة، وفيما يتعلق بقسم السيارات عرف لا كوكا كيف يجعل مهندسى الشركة يضعون فى السوق سيارة بديعة من طراز سيدان تبيع مليونين فى عام واحد، والمسألة هنا ليست مسألة عبقرية أو عصا سحرية وإنما مسألة إدارة سليمة ومعرفة بأساليب جعل كل عامل فى الشركة من كبار المهندسين والمديرين والفنيين والمصممين والمتخصصين يقدمون أحسن ما عندهم، وكيف تستفيد الشركة من كل جهود هؤلاء وأفكارهم ومكافآتهم المكافأة المناسبة. وهذا الرجل لا كوكا يرأس نحو ١٥٠ ألف موظف وفنى، ومراكز توكيلات سيارات كرايزلر فى الولايات المتحدة يبلغ عددها ٣٩٨٤ توكيلاً كل أصحابها يحبون هذا الرجل ويعجبون به، وعمال الشركة مفتونون به، وقد قالت سيدة تسمى سارة هينز تعمل فى أحد خطوط تجميع السيارات فى الشركة فى ديترويت: إننى مدينة بكل شىء للاكوكا، كانوا على وشك أن يفصلونى فى سنة ١٩٨٠م والآن، أتقاضى ثلاثة آلاف دولار فى الشهر بالإضافة إلى مكافأة مرتب ثلاثة شهور فى السنة وثلاثة أسابيع إجازة مدفوعة والعلاج المجانى الكامل فى مستشفيات الشركة. وقد كنت أتحدث فى هذا مع رئيس مجلس إدارة إحدى مؤسسات القطاع العام عندنا ونحن فى الطائرة إلى زيوريخ فقال لى: وكم يبلغ راتب هذا الرجل؟ قلت وأنا أتأمل غلاف كتاب تاريخ حياة لا كوكا (نشر دار بانتمام والثمن ٢٥ دولارًا) فوق المليون دولار قطعا، فضحك وقال: يستكثرون علينا خمسة آلاف جنيه فى الشهر، ويقول رفيق لنا فى الرحلة وعضو فى مجلس إدارة البنك الأهلى: ولكنك تنسى أن شركة كرايزلر تحقق الآن أرباحا تزيد على الألفى

مليون فى السنة وشركتك يا عزيزى تخسر بمعدل مليون جنيه فى السنة، وديونكم للبنوك قاربت العشرين مليونا، والترجمة الشخصية للا كوكا باعت مليونى نسخة من الطبعة ذات الغلاف المقوى، وهم لم يصدروا الطبعة الشعبية (البيبر باك) بعد ودار بانتام باعت ٢٠٠٠٠٠ نسخة فى اليابان، لأن أهل اليابان شعب ناجح يحب أن يقرأ قصص النجاح، وبدلا من أن يحقدوا على لى لا كوكا ويحسدوه ويسألوا الله أن يخرب بيته يقرأون سيرة حياته بقلمه ليعرفوا كيف نجح. فى تلك البلاد تعتبر قصص النجاح أناشيد شعبية، وهى عندنا لعنة على صاحبها. هناك نجد الفكر الناجح وعندنا الفكر الخيبان.

وقد حكيت فى كلامى عن أوليمبياد لوس أنجيليس، قصة نجاح مدير الدورة وهو بيتر أوبروت، وأذكركم. بالقصة فأقول: إنهم عندما اختاروا هذا الرجل مديرا لتلك الدورة كانت خطوته الأولى أن قال: إننى لا أستطيع أن أشحذ تمويل الدورة فى صورة تبرعات:

من هنا خمسة آلاف ومن هناك ثلاثة آلاف أو عشرة، ثم أطلب الباقى إحسانا من حكومة الولايات المتحدة. والذى سأفعله هو أن آخذ تمويل الدورة كله من ثلاثين شركة بمعدل أربعة ملايين لكل منها، فيتجمع لى منذ البداية ١٢٠ مليون دولار وهو رأس المال المطلوب. وهذه الشركات الثلاثون تحتكر الإعلانات فى كل منشآت الدورة. وكانت أول شركة استجابت له شركة أفلام يابانية لها فرع كبير فى أمريكا، ثم تعاقبت الشركة حتى اكتملت للرجل المائة والعشرون مليونا وبدأ يعمل. وكل شئ جعله الرجل مصدر تمويل: الإذاعات والتليفزيون وسيارات النقل حتى المبانى والوظائف. وكثير من الشركات والهيئات قامت ببناء ملاعب أو حلبات تدريب أو مراكز إيواء لتستعملها الدورة ثم تكون ملكا للشركات والهيئات المنشئة فيما بعد، والجامعات والهيئات قدمت الإداريين والمدربين وتحملت نفقاتهم ورواتبهم، وجماعات الرياضيين الذين رشحتهم

الجامعات والهيئات لحضور الدورة وشهود التدريبات عن قرب دفعت أموالا فى مقابل ذلك.

وكان الرجل حريصًا جدًا فى اختيار الموظفين، كما يقول: أريد كفاءات لا مجرد موظفين، وأنا على استعداد لأن أعطى عشرة آلاف دولار فى الشهر لأى موظف فنى يؤدى لى عمل عشرة، وهذا أفضل عندى من أن استخدم عشرة يتقاضى كل منهم ألفا، والكومبيوتر استعمل على أوسع نطاق. وكانت هناك موظفات فى أقسام البرمجة تعمل الواحدة منهن على ثلاثة أجهزة فى نفس الوقت، ولم يسمح أوبروت للواحدة منهن بأن تعمل أكثر من ساعتين متواليتين ثم تستريح ساعة. وعدد ساعات العمل اليومى لكل منهن لم يزد قط على ست ساعات فى اليوم. ولكن الواحدة منهن تؤدى عمل نصف موظفى مبنى مجمع ميدان التحرير وللمرة الأولى فى تاريخ الأوليمبيادة حققت الدولة أرباحًا وصلت إلى ١٥٠ مليونا من الدولارات، نصفها من حق اللجنة الأوليمبية الأمريكية، فقل لى والله كم تعطى لهذا الرجل أتعابا؟ ضع إلى جانب ذلك صورة وزير اقتصاد مصرى سابق أبغضه كل المصريين بغضًا قوميًا شاملاً، وكان يوم خروجه من وزارة الاقتصاد عيدًا احتفل به الكثيرون، لأنه فيما يقال أهلك الحرث، وكان على وشك أن يبدأ فى إهلاك النسل عندما كتب الله لنا النجاة منه. والكلام عن هذا الرجل كثير والتحقيقات كثيرة وسننتظر أعواما حتى نعرف الحقائق، لأن شعبنا من عشاق (بكرة) والحكمة السائدة هى: لا تعمل اليوم ما تستطيع تأجيله إلى الغد. هذا الرجل أيام وجوده فى الوزارة ذهب إلى الولايات المتحدة يجتمع بالمغتربين المصريين ويقنعهم بالاشتراك فى تمويل المشروعات المصرية، وكان مما قاله لهم ليؤكد لهم ثبات الاقتصاد المصرى فى عصره السعيد إن الإنتاج الصناعى الزراعى المصرى يصل إلى سبعة آلاف مليون دولار! وسيادته نسى أنه يتحدث فى أمريكا مع أمريكيين يعرفون

أن قيمة إجمالى الإنتاج القومى الأمريكى وهو أكبر إنتاج فى الدنيا يبلغ ثلاثة آلاف وأربعمائة مليون دولار تقريبا.

وتليها اليابان فألمانيا الغربية. وبحسب تقدير سيادته يكون إنتاجنا القومى معادلا لإنتاج الولايات المتحدة واليابان معا . وهذا الوزير الذى كان قبلا أستاذا جامعيا تعود أن يتحدث إلى فقراء لا يفهمون لغة الأرقام، والفرق عندهم بين ثلاثة آلاف مليون وسبعة آلاف مليون قليل، أنهم لا يعرفون أو يتصورون هذا أو ذاك.

ولأننا فقراء فإن تفكيرنا فقير. وهذا التفكير يستكثر الخير على أى إنسان، بل نحن لا نعرف المعنى الحقيقى للثروة، ومن العسير جدا علينا أن نفهم معنى الثروة التى تملكها شركة فليك الألمانية، وهى التى تنتج إلى جانب أشياء كثيرة جدًا سيارات مرسيدس بنز أو ثروة بيت أنبيلى الذين يملكون شركة فيات، والمدير الحالى لشركة فيات يصنع الأعاجيب ويحقق البلايين أرباحًا، والناس هناك لا يحسدونه أو يتمنون خراب بيته، بل يقرأون أخباره ليزدادوا طموحا.

ومن ثمانى سنوات كانت شركة أوليفيتى للآلات الكاتبة والحاسبة وأدوات المكاتب تعانى أزمة مالية حادة فالمبيعات نزلت إلى الربع قيمة الأسهم سقطت فى السوق إلى الثلث والديون بلغت سبعة ملايين دولار.

ثم عين رئيس لمجلس إدارتها مدير شاب موهوب هو كارلو دى بينديني وبدأ التحول والشركة التى كانت فى طريق التصفية بدأت تصعد من جديد وكارلو دى بينديني وضع فى السوق طرازات من الكومبيوتر الشخصى قاربت فى الجودة ما تسمعه الآى - بى - إم . تباع بثلثى الثمن، وتحسنت أساليب توزيع الشركة وفجأة بلغت المبيعات ألفى بليون وغزت أوليفيتى أسواق فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة، وفى كل الأوساط الصناعية فى الدنيا أصبح كارلودى بنديتى رجل العام. وتقدم بجرأة

واشترى مصانع بويتون بيروجينا للعجائن والشيكولاته والأغذية المصنعة، وكانت الشركة تقترب من الإفلاس وعرضت للبيع وتقدمت لشرائها مع مصانعها شركة البان وأغذية فرنسية مشهورة هى شركة جرفية دانونى المعروفة بالجبن واللبن الزبادى المعروف فى كل أوربا، وتقدم كارلو دى بينديتى بجرأة رجل الأعمال الناجح ودفع ثلاثة ملايين ونصف زيادة على ماعرضه الفرنسيون، وأصبحت مصانع بويتونى وبيروجينا ملك شركة أوليفتى، وبدأ مركزها فى السوق يتحسن وأخذت تصعد فى السوق من جديد، وقد أحسنا نحن بهذا الصعود، فمنذ حين يعلنون عن تلك العجائن فى مصر وهذه فى الغالب شركة فرعية لأن الشركات الكبرى تنتشر فى العالم ببيع حق التصنيع مع الإشراف الفنى، وهذه كلها أخلاق نجاح وتصرفات نجاح، وهذه البلاد تؤمن بالعمل والنجاح ولا يقنع أهلها بمجرد الحسد وتمنى خراب بيوت الناس.

□□□

وسواء كنت فى أمريكا أو إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو اليابان فأنت تحس أنك فى بلاد تؤمن بالنجاح والعمل وأخلاق أهلها أخلاق نجاح وعمل. وأبسط مظاهر العمل المثمر والنجاح هو النظافة والجمال والأناقة فالشوارع جميلة نظيفة والمبانى سامقة غنية والناس لباسهم يدل على سعة حال. وأمريكا بلد مشهور بأصحاب الملايين وأنت تحس ذلك، فأنت ترى على طول طريقك مبانى ومنشآت أنشأها أصحاب ملايين وأهدوها لبلادهم، فهذا المستشفى أنشأه المليونير فلان وهذا المعمل الطبى فى جامعة كذا هدية من فلان، وقد عملت مرارًا عديدة أستاذًا زائرًا فى جامعات أوربية وأمريكية وكنت أتعجب من كثرة ما يهديه الأغنياء للأمة، وأذكر أننى وقفت مرة فى حديقة فى جامعة بيل بمدينة نيوهيفن وكل المبانى المحيطة بالحديقة كانت هدايا من أصحاب ملايين معامل ومستشفيات وأقسام علمية ودور ضيافة للطلاب ومكتبات. وهنا فى الجامعة الأمريكية فى

القاهرة مبنيان هدايا من أغنياء أمريكيين، ولا أذكر أن أحدًا من أغنيائنا أهدى غرفة أو كشكا. لجامعة القاهرة أو عين شمس أو الإسكندرية أو أى جامعة لأن أغنياءنا فى الحقيقة فقراء، وأنا لا أصدق أن عندنا أصحاب ملايين. يقولون لك إن فى مصر الآن لا أدرى كم ألف صاحب ملايين وأنا أقول: كلام فارغ، وهؤلاء إن وجدوا فهم أصحاب ملايين فقراء إنهم كرماء على أنفسهم وأولادهم بخلاء على الوطن والناس فهم أغنياء على أنفسهم فقراء بالنسبة لنا وهم من هنا أغنياء فقراء وعليهم يصدق قول المتنبى:

جود الكرم من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ولقد مررت بهم وهم فى مجالسهم على الشاطئ ورأيت منشآتهم الفقيرة على شاطئ العجمى ، كلها عمائر أنشأوها وسكنوا فيها مع الناس، وكل منهم يزعم أنه بنى لنفسه ولكل واحد من أولاده فيلا فى عمارته فهذه أشياء لكم وخيركم عائد عليكم وحدكم، فلماذا تطالبون بأن نعاملكم على أنكم ناس ممتازون عن غيركم، وفى نفسى إحساس بأننا لو حاسبناكم على قاعدة من أين لك هذا لما بقى لكم مما تملكون شىء، بل لعل الدولة لو حاسبتكم بحزم وطالبتكم بما هربتموه من الضرائب لأخذت كل ما معكم بقى عليكم ما تؤدونه سجنا.

□□□

وقد كان الأغنياء فى الماضى يبنون لأنفسهم فيلات وقصورا ذات حدائق جميلة، وإذا كانوا لا يعطون الأمة شيئا فقد كانوا على الأقل يضيفون إلى جمال البلد، وقصورهم فى أحياء الزمالك وجاردن سيتى والمعادى ومصر الجديدة كانت زينة وفرجة أما أغنياء اليوم فهم أغنياء (عِرّة ب) تجد الواحد منهم يبنى عمارة من ثلاثين طابقا ثم يبنى لنفسه فيلا فوقها، أى أنه فى النهاية يسكن على السطوح، والسطوح أيا كان شكله وحجمه سطوح، والساكن عليه لا يفترق عن الغلبان الذى كان يكترى غرفة على

السطح، وأخلاقهم كذلك أخلاق سطوحية فهم لا يتعففون عن قرش تعريفة، وواحد منهم أقام وليمة سمك لأصحابه فى أحد مطاعم أبى قير، وفى آخر الوليمة أمر خدمة بأن يجمعوا بقايا الأكل ويأخذوه إلى البيت تحت إشراف ست هانم الكبيرة وخادمتها ست أم فرج، وقد شهدت عملية الجمع فى أكياس البلاستيك وست هانم الكبيرة ربطت دماغها بمنديل ومضت تجمع بيدها البقايا حتى رءوس السمك، وكان من الصعب أن تفرق بين ست أم فرج الشغالة وست هانم الكبيرة التى حملت فى يدها برطامانات بقايا المايونيز والطورشى وجلست فى سيارة ب. م. وتسوقها دولت هانم وهى أيضًا مليونيرة فقرى.

ولكن قانون من أين لك هذا لا يطبق إلا على الذين لا يملكون شيئا، و(هذا) بالنسبة للفقراء غير موجود، ومن ثم فلا حساب عليه. ومن أسف أن الحال هنا كما هو عند كل البلاد الغلبانة وهو أن الإدارة ملك للأغنياء أو تخاف منهم، ونحن قوم لا نعرف الطموح، ولكننا نعرف الطمع، والطموح يبنى الشعوب والطمع يخربها، ومادامت القاعدة كما تكونوا يول عليكم، فنحن فقراء غلابة وحكومتنا مثلنا، ولأنها مثلنا فليس لديها ما تنفقه على النظافة، وكل مدننا بما فيها بل على رأسها القاهرة والإسكندرية تسد النفس، أما ما يلى ذلك من طنطا وأسيوط وأنت نازل فكلها أشياء بين القرى والعزب والكفور والنجوع وقرافات المجاورين والغفير وسبحانه الحى الباقى.

(١٨)

الداء .. والدواء*

أبدأ هذا الفصل بوصف مشهد حزين يعطى القارئ فكرة عمار أريد أن أقول فيه، فقد ذهبت إلى محطة السكة الحديد فى القاهرة لأخذ قطار الثامنة صباحا إلى الإسكندرية لحضور اجتماع علمى، وفاجأتنى لأول دخولى فناء المحطة فوضى شاملة وناس يروحون ويجيئون، وأصوات تحتج، والطريق المؤدى إلى الرصيف الذى أجد فيه قطارى شبه مقفل بالناس، وعندما وصلت إلى مدخل الرصيف وجدت رجلاً يلبس جلابية وجاكتة على رأسه طاقية شبيكة يقول لى: استنى هنا على جنب يا حضرة، الأستاذ رياض جاى حالاً.

– ومن الأستاذ رياض؟

– مفتش التذاكر هنا..

ونظرت إلى هذا الإنسان الذى بدا لى وكأنه بهلوان، ولم أجد أى معنى للحديث معه. كان الوقت مبكرًا ولا بأس من انتظار دقيقة أو اثنتين حتى يعود رياض أفندى ويأذن لى فى الدخول، وتشاغلت بتأمل الضجة التى سادت الفناء، وسألت أحد المشاركين فيها فقال فى غيظ:

– شىء يجنن يا حضرة: لنا نصف ساعة هنا ونحن لا نعرف أين قطارنا الذى سنأخذه، هذا القطار لا يقف عند رصيف معروف، فمرة رصيف ٣ ومرة ٧، ومرة ٩ ولا أحد يدلنا، ونحن نريد أن نسافر لأعمالنا، وهذه اللوحة الاليكترونية التى كانت تدلنا على الرصيف والمواعيد معطلة من شهور.اشتغلت يا دوبك شهرا، ثم ماتت.

وبعد دقائق أقبل شاب يلبس بنطلونًا وقميصًا. وشبشبًا، وقال بصوت عال: قطر الزقازيق رصيف ٩.

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٣ أبريل ١٩٨٦م .

قالها مرة واحدة ثم استدار ومضى وتلاحق به الناس يسألونه عن الرصيف، وهو لا يكترث لهم، ثم قال: قلنا بأعلى الصوت تسعة، رصيف تسعة! هل أصابكم صمم؟ بلاوى.

والبلاوى - والمقصود بهم المواطنون مضوا يهرولون نحو رصيف تسعة.

وسألت صاحبنا ذا الجلباب والجاكتة والطاقية الشبيكة: وأين رصيف تسعة هذا، فأشار بيده إشارة تافهة وقال: هنا! تخرج من هذا الباب إلى رصيف ٦ وبعده بثلاثة أرصفة تجد تسعة.

وتأخر السيد رياض فدخلت وقلت لهذا الإنسان:

- أخشى أن يفوتنى القطار، ثم إن كل الناس مروا دون أن ينتظروا الأخ رياض.

ولم يحفل الرجل لدخولى ومضيت أبحث عن مكانى فى القطار، ولاحقنى إنسان عجيب طويل كالنخلة وقال: تذكرتك يا حضرة.

وحاول أن يأخذ حقيبتى من يدى فرفضت، ولم أعطه التذكرة، لأننى عرفت أنه صعلوك طفيلى يزعم أنه يريد معاونتى لأعطيه شيئًا، فتركنى لغيرى، ووصلت إلى عربتى ووجدت مكانى، وكالعادة كان المقعد مغطى بالتراب فأخرجت منديلاً ورقيًا ومضيت أنظفه وأنظف المسند الجلدى خلفى والشباك، وأدركنى رجل يلبس ملابس سكة الحديد وقال:

- عنك يا سعادة البيه.. والله لقد نظفت العربة من الصباح الباكر حتى أصبحت عروسة.. أجلس.. ولا تخف!

وأريته المنديل الذى أصبح لون الهباب، وأخرجت منديلاً آخر لأكمل به التظيف وجلست وهو واقف لا يريم فى انتظار البقشيش ونظرت إليه وقلت:

- ماذا تريد؟

كل سنة وأنت طيب يا سعادة البيه.

فلم أحفل له، وفتحت الحقيبة وأخرجت ترموس شاى أتيت بـه معـى لأتقى شر بوفيه القطار، وصببت كوبًا ومضيت أنظر من النافذة التى غطتها طبقة من التراب وأصابها شرخ طويل.

وقال رجل يجلس أمامى: كالعادة! عشـرون دقيقـة تأخـير، والقطـار لم يتحرك بعد، وأخيرًا، وبعد تأخير قرابة النصف ساعة تحـرك القطـار، ومضيت أسأل نفسى: ترى هل هذه المحطة بكل ما فيها من قطارات ملك للحكومة، أم هى ملك لريـاض أفنـدى وصاحبنـا ذى الجلبـاب والجاكتـة والطاقية والآخر ذى الشبشـب والقميـص والبنطلـون وفـراش العربـة الـذى لا ينظفها والهلفوت الذى جرى ورائى ليفرض نفسـه علـىّ؟ وهـل يـاترى وصل إخواننا قطارهم عند رصيف ٩ وركبوه؟ واللوحة الالكترونية ترى مـن الذى أخربها وجعلها جثة هامدة؟ ووجدت نفسى أقول: وماذا يدهشك فى هذا كله؟ هذه هى الحكومة. وإذا لم تكن هكذا فهى ليسـت حكومـة، إذن أين سكة الحديد التى حدثنا عنها السيد وزير المواصلات فى حديثه البديع فى مجلس الشعب؟ أين الخدمة المتازة؟ أين القطارات التى تـبرق وتلمـع وتقوم بالدقيقة وتصل بالثانية؟ أين الثلاثمائة مليون دولار التى أنفقت فـى تحسين سكة الحديد خلال هذا العام؟ هناك شىء واحد مؤكد هنا: هو أن الملايين ضاعت؟ والمشكلة قطعا ليست فى الوزيرة ولا هى فى القطارات أو المبانى.. المشكلة فى رياض أفندى وشلة الموظفـين العواطليـة الذيـن رأيـت نماذج منهم. هذا هو المستوى الذى وصلت إليه الخدمة العامة فى بلادك.

وهذا القطار الذى وصل إلى بلادنا فخما جميلا أصبح من يوم أن اسـتقر فى المحطة ملكًا للعواطلية وخرج فى الواقع عن ملك الدولة. ألم يقولوا لك إن هذا القطار بالذات مزود ببوفيه ممتاز يقدم لك خدمة على مستوى خدمة الطائرات؟ فهذه هى الخدمة: صعلوك بجلباب وفى منقاره سيجارة كنـج سايز وعلى كفه المبسـوطة على مستوى رأسه ثلاثـة صفـوف مـن الشـطائر، وخلفه غلام يحمل صينية قلل عليها زجاجات مرطبـات والنـاس يشـترون

الشطائر ويخرجونها من الورق ويلقون به على الأرض، وكذلك أغطية زجاجات المرطبات التى تتطاير، وأين أنت يا صاحب السعادة رئيس مجلس إدارة سكة الحديد؟ لابد أنك بارحت مكتبك العظيم وسافرت مع وفد من المهندسين أمثالك لكى تشترى لوحات اليكترونية آخر طراز لتواريها التراب فى أفنية المحطات. ولتشترى قطارات آخر طراز لتسلمها إلى جيش الموظفين العواطلية.. ومع ذلك فأنا لا ألومك، فإن وظيفتك هى إنفاق ملايين الدولارات وتقديم التقارير إلى السيد الوزير، وسيادة الوزير فى واد والموظفون فى واد، والموظفون المسافرون يجرون فى المحطات من رصيف واحد إلى رصيف تسعة لأنهم فى وادى التيه.

□□□

ذلك هو الداء: الجهاز الحكومى المستهلك. الموظف الحكومى الذى لم يعد موظفًا مسئولاً، وتحول شيئًا فشيئًا إلى مستحق فى وقف عام. قبل أيام كنا فى متجر قطاع عام لنشترى قميصا فوجدنا البائعة المحجبة جالسة أمام صف من الفواتير وهى تسجل مبالغها على آلة حاسبة أمامها ونحن ننتظر، وانتظر وانتظر ثم أقول لها:

– من فضلك أريد القميص الذى.. وتقاطعنى وتقول:

– أما ترانى أعمل؟

– بل أراك، ولكن لى عشر دقائق هنا..

– عندما أفرغ من عملى، استرح قليلاً على أحد هذه الكراسى.

– لا يا سيدتى أنا لا أستريح إلا إذا قضيت لى حاجتى.. وهذه الفواتير كان ينبغى أن تسجيلها بالأمس.. من فضلك انهض لتخدمى العملاء.

– اخدم العملاء؟ وهل أنا خادمتك؟

وهذه القصة كتبتها فى خطاب مسجل إلى رئيس مجلس إدارة الشركة دون جدوى، وفى مرة أخرى وقفنا معا أمام الخزانة لندفع أثمان ما اشترينا، والسيدة الجالسة أمام الخزانة تصلح جهاز الترانزيستور وتفتحه، وتنفخ فى البطاريات ثم تقفله وتجرب، وسيد محترم يخرج من الصف ويتقدم نحوها ويأخذ الجهاز ويضرب به الأرض ويضع النقود أمامها، ويخرج من المحل وتنهض حضرتها وتجرى وراءه وهى تولول، وعندما رأت ساعيًا يفتح له باب السيارة عادت لأنها فهمت أنها أمام سيد محترم وأخذت تجمع حطام الترانزيستور. ومدير المحل- وهو موظف كبير طبعا - يقبل غاضبًا ويسألها:

- هذه جريمة كيف يحطم الجهاز ويمضى دون أن يحاسبه أحد؟ وينظر إلينا ويقول:

- وأنتم أيها السادة ألم يكن بينكم من يحمى الآنسة؟ وسيدة كانت أمامى تقول خيرًا فعل، ولو أنه أخذ رأسها وضرب به الأرض لكان أحسن، أنا حرم اللواء فلان، ومقصوفة الرقبة هذه لا تجد من يؤدبها، وكلام السيدة الجليلة رد المدير والموظفة إلى العقل.. وصاحت البائعة:

- إنه لم يدفع ثمن ما اشترى.

- بل وضعه أمامك ولكن حضرتك كنت مشغولة بالراديو.

ومدير المحل يقول خلاص بقى يا منال عوضك على الله، والبنت طفقت تبكى، والمدير حل محلها على الخزانة وفراش جمع حطام الراديو ووضعه فى كيس بلاستيك أخذته وانصرفت وهى تبكى.

□□□

مشاهد وصور تضع يدك على الداء. وتضع يدك على الدواء، فإن الداء هو الجهاز الحكومى الذى توقف عن العمل تقريبًا، والدواء هو بناء جهاز إدارى جديد، وهذا البناء لا يحتاج إلى قوانين، فإن القوانين عندنا تولد ميتة، أو هى تموت فى أيدى الموظفين الموتى، وهآنذا فى مكتب فى مجمع

إدارى ومعى رقم شيك أرسل إلى هنا باسمى، ومع الرقم التاريخ والمبلغ، والموظف يتحدث بالتليفون ثم يضع السماعة ويمسك بالورقة ويقول فى أدب بالغ:

– بكل سرور سنصرف لك المبلغ أنا اذكر أن الاستمارة مرت علىّ ووقعتها، إنها الآن عند خميس أفندى فى الغرفة الثالثة على يمينك، والغرفة الثالثة على يمينى فيها أربعة مكاتب ليس عليها أحد لا خميس ولا جمعة ولا سبت ولا أحد، وأعود إلى الموظف فلا أجده. والفراش يقول ولا مؤاخذة جاءته مكالمة تليفونية عاجلة، اصله ولا مؤاخذة مشارك فى بوتيك! وأين خميس أفندى؟ غير موجود. ولا يهمك تعال معى إلى حيث تجد خميس أفندى، أصل ولا مؤاخذة الجمعية جاء فيها بيض، وكلهم راحوا، إذا كنت تريد كرتونة بيض أنا آتيك بها، حتى لا تعود بيدك فاضية.

لقد تألمنا ذات مرة ونحن نسمع خبيرًا أمريكيا يتحدث فى اجتماع حضرناه وسمعناه يلخص مأساة متاعب مصر فيما سماه الأداء التعيس للموظف المصرى العام

the miserable performance of the Egyptian civil servant

وهى عبارة أليمة صكت أسماعنا وتلقيناها كأنها صفعة نزلت على وجوهنا، ولم يستطع أحد منا الرد عليها بكلمة لأنها عبارة حق.

□□□

والمأساة لا تقتصر على الأداء التعيس للموظف المصرى بل تتعدى ذلك إلى جمود ذهنه وعجزه الكامل عن البحث عن حلول للمشاكل أو تحسينات للواقع، كأن الأمر لا يعنيه، فكل ما نفاجأ به من متاعب واضح للعيان قبل أن يقع، لقد تعجبنا جميعا من أننا نعطى مواطنًا راتبًا قدره ستة جنيهات ثم نطالبه بعمل أربع وعشرين ساعة، وهذا مقال لزميلى فى هذه المجلة الأستاذ أحمد مصطفى يقول فيه إن عسكرى البوليس المصرى يتقاضى بعد

وفى الغرب حلوا هذه المشكلة بإنشاء البلديات من أيام الرومان، وهى هيئات تنتخب أى أنها تتكون من أسفل إلى أعلى، وأعضاء البلديات يخرجون من صفوف سكان المنطقة، فهم يعرفون مشاكل المدن والأحياء التى انتخبتهم، والبلديات أجهزتها التنفيذية التى تنفذ ما تقرره المجالس البلدية، والبلدية فى مدينة مثل لندن أو نيويورك مسئولة عن مرافق المدينة وكل شىء فيها إلا الأمن. فإن أجهزة الأمن أجهزة عامة تتبع وزارة الداخلية ولكن المجلس البلدى يشرف على أجهزة الأمن فى دائرة نفوذه والحكومة هناك تعطى رجال الأمن مرتباتهم، ولكن البلدية يمكن أن تقدر لهم رواتب أخرى لأن لها الحق فى أن تطالبهم بمطالب أمنية خاصة بمناطقهم بحسب ظروفها، ومن هنا فإن حكومات المدن هناك قوية وفعالة، أما عندنا فالحكومة المحلية فى مدينة مثل القاهرة مغلولة اليد. وكل مرفق فيها يتبع وزارة، فلا سلطان لها على المرافق، وهى لا تستطيع إلزام مواطن باتباع قوانين البناء ولا إيقاف شركة تخالف قواعد البناء، وإلى هذا يرجع تدهور مدينة مثل القاهرة، فإن مصالحها بيد وزراء كثيرين وسلطات متعددة وهى فى واقع الأمر ضائعة.

وهذه كلها أوضاع سيئة تعوق العمل وتشل الإصلاح، وكلها أوضاع نشأت فى عصر الاستبداد المطلق الذى تخلصنا منه ولم نعد نحتاج إلى شىء منها فلماذا نتمسك بها؟

أضف إلى ذلك أن عصر الاستبداد شل أيدى موظفى الدولة تمامًا، حتى تعودوا الوقوف أمام المشاكل عاجزين، ومع مرور الزمن أصبحوا متبلدين وموظف الحكومة اليوم. وبعد قصقصة أجنحته أصبح عاجزًا عن الحل والعقد، لأنه يحتاج إلى أوامر من فوق فى كل شىء و (فوق) اليوم لا يأمر بل يتركون الموظفين أحرارًا، ولهذا فإن الموظف الحكومى تحت درجة الوزير أصبح رمزًا بلا حقيقة، وفى تلك الظروف اقتصرت جهود الموظف على خدمة نفسه، أو المحافظة على منصبه- وكل الموظفين الذين تراهم

خدمة خمسة وعشرين عامًا راتبًا قدره ثلاثون جنيها، وعندما تعلن حالة الطوارىء ويطالب بعمل لمدة أربع وعشرين ساعة يحسب له عشرة قروش عن اليوم، فإن كان هذا غير صحيح فلماذا لم يكذبوه، وإن كان حقا فهذا إعصار آخر يتكون، وأنا واثق أن أحدًا من المسئولين لا يضع هذه المشكلة فى حسابه ويمضى يبحث عن الحل، ليس فى الدنيا مشكلة تستعصى على الحل إذا هى أخذت موضع الجد وبحثت فى وقتها، ولكن أين من يفكر وأين من يبحث؟

من المؤكد أن الحكومة لا تحصل من الضرائب الواجبة التحصيل إلا الربع وأنها تستطيع أن تضاعف دخلها إذا هى كانت جادة فى التحصيل، ولكنها فيما نرى غير جادة، لأن المشكلة تبدأ من فوق. والناس اللى فوق (غير جادين فى موضوع الضرائب أو أى موضوع حكومى، وإلى جانبنا عمارة من سبعة وثلاثين دورًا وليس لها إلا جراح رمزى لا يتسع لعشر سيارات. وبقية سيارات العمارة سدت لنا كل الطرقات، وعندما فكرنا فى الشكوى وجدنا أن هذه سيارات ناس كبار: وكلاء وزارات ورؤساء وأعضاء مجالس وزراء وسفراء ولواءات فإلى من نشكو وإلى أين المفر؟

معنى هذا أن الذين نطالبهم بالحلول هم اصل المشكلة. ورياسة الدولة عندما تنبهنا إلى التاعب وتطالبنا بالعمل لابد أن تعذرنا إذا لم ننفذ، لأن موظفى الدولة من وكيل الوزارة إلى الفراش هم لباب المشكلة. وقد عرفت بالتجربة ألا فائدة إطلاقا فى الكلام مع مسئول من وكيل الوزارة فنازلا، وأنت مهما تفعل فلن تحل مشاكلك مع الحكومة إذا سرت فى الطريق السليم. كم مرة قلنا إن نظام مجالس الأحياء ليس السبيل الصحيح لحل مشاكل المدن. وإذا كانت المسألة هى حل مشاكل نوع معين من الموظفين بإيجاد وظائف لهم.. وظائف هم غرباء عنها؛ ولهذا فإنهم لن يحلو لنا مشكلة مهما حسنت نياتهم واستقامت أخلاقهم، لأن إدارة المدن تحتاج إلى كفايات فنية وخبرات إدارية كثيرة لا تتيسر إلا لمن تمرس بالعمل المدنى.

موظفين عند أنفسهم، ورياض أفندى مفتش سكة الحديد الذى ذكرته ترك بوابته ومضى لبعض شأنه، لأن هذه البوابة فى نظره ملكه، والأنسة التى تركتنا ننتظر لكى تعالج الترانزستور الخاص بها تصرفت على هذا النحو، لأنها لا تحس أنها فى خدمتنا، بل نحن فى خدمتها، ولو أننا مضينا جميعا نشتكيها إلى مدير المحل لما اهتزت فى جسدها شعرة، لأن هذا المدير لا يستطيع أن يخصم من راتبها يومًا.

□□□

كل هذه أوضاع غير سليمة ولابد من علاجها. والكثير منها أسباب تكون أعاصير يمكن أن تنفجر وتدمر، وموظفو الحكومة عاجزون عن علاجها، ولا تغرنك اجتماعات لجان الوكلاء أو المديرين فى أى وزارة، فهذه شكليات لا تحل ولا تربط غلا فى حدود ضيقة جدًا، وقد كنا أعضاء فى العشرات منها ولا أذكر أننا فى ذات يوم استطعنا أن نحل إشكالاً، والسيد وكيل الوزارة يتلقى محاضر اجتماعات اللجان وتوصياتها ويضعها فى الدرج، ودرجة مقبرة، أما السيد الوزير فلا يقيم لها وزنا، واذكر إننا اجتمعنا مرة فى وزارة التربية لدراسة مشكلة، وحضرت الاجتماعات مجاملة للسيد الوزير فقد كان صديقا، وهمس فى أذنى زميل. أليس من الظلم أن يصرفوا لنا عن الجلسة خمسة جنيها؟ قلت: لا، ليس هناك ظلم، فعملنا هنا لا يساوى ملاليم.

□□□

هذا هو الداء فأين الدواء؟

كما هى العادة: الدواء أمامنا، ولكننا لا نراه أو لا نريد أن نراه، وقد سبق أن قلنا إن بلدنا هذا عجيب: إن الله قد وهبه مفاتيح الثروة والرخاء، ولكنه لا يستعملها ويسير فى طريق الفقر والضيق.

ورزقنا الله أخصب أرض زراعية فى الدنيا، ولكننا ندمرها ونستدين المال لنستصلح الصحراء. والتعليم الحديث فى بلادنا من نحو قرنين من

الزمان، ولكننا إلى يومنا هذا نقف – من حيث العلم – نقف فى مستوى أمم استقلت وعرفت التعليم من ربع قرن لا يزيد. لأننا حولنا النظام التعليمى من وسيلة لفتح باب الأرزاق إلى طريق ضيق لتحويل الشبان إلى موظفين بشهادات عالية لا تعنى شيئًا من الناحية العلمية أو العملية ولكنها تحدد مستوى اجتماعيًا، فالشاب الجامعى اليوم ليس شابا متعلما أو قادرًا على كسب رزقه عن طريق حرفة يجيدها، ، ولكنه شاب جامعى أى مجرد متخرج فى جامعة، وباستثناء شهادات الطب والهندسة فإن الشهادة الجامعية لا تعنى فى الغالب إلا التعاسة وقلة الرزق. وهكذا.

وبالنسبة لمشاكلنا الحاضرة والمستقبلة لدينا العشرات من الرجال المتخصصين القادرين على إيجاد الحلول لمشاكلنا ودراستها فى هدوء وتجرد وتنبهنا إلى مواضع الخطر واحتمالات تكون الأعاصير قبل هبوبها. وهؤلاء الرجال موجودون فى المجالس القومية المتخصصة التى تضم من الخبرات ما هو كفيل بحل مشاكل العالم الثالث كله. وما من مشكلة من مشاكلنا إلا درستها المجالس القومية ونبهت إلى مواضع الخطورة فيها، وقدمت لنا الحلول. ولقد عرف الدكتور عبد القادر حاتم كيف يجمع فيها خبرة أهل العلم والخبرة والتخصص فى هذا البلد، وهؤلاء جميعا يعملون مجانا تقريبًا وبكل إخلاص. يدرسون ويقدمون التقارير والتوصيات والحلول الناجعة. ولو بحثنا فى ملفاتها لوجدنا فيها ما يعيننا على الخروج من مآزق الاقتصاد والتعليم والزراعة والتصنيع، بل أنا واثق من إننا سنجد فيها تنبيهًا إلى ما يمكن أن تؤدى إليه أحوال فرق الأمن المركزى أو ضعف مرتبات رجال البوليس أو متاعب الشباب الذى ينفق ربع حياته فى التعليم ثم لا يجد بعد ذلك إلا الفقر والضيق.

إن الدستور يجعل المجالس القومية المتخصصة جزءا من نظام الحكم فلماذا نهملها؟

إذا لم تكن توصياتها تعجبنا إلى اليوم فلنغير رأينا الآن، ولنضع مشاكلنا أمامها ونطلب الدراسات والحلول. سنجد عند هذه المجالس التنبيهات إلى الأخطار والإشارات إلى الحلول.

هل كان اللواء أحمد رشدى* وحده المسئول عن الانفجار الذى حدث؟ أظن أن هذا غير معقول، فإن الرجل كما عرفناه لا يمكن أن يكون المسئول الوحيد عن الكارثة، فقد نبه إلى الخطر مرة بعد أخرى، ولكننا فى العادة لا نبدأ علاج أى مشكلة إلا بعد وقوع الكارثة. وأنا أذكر أن رجلا آخر يحتل مركزًا من مراكز الصدارة فى إدارتنا قال يومًا: ماذا يريدون؟ ألسنا نعطيهم ستة جنيهات فى الشهر أى أربعة دولارات؟ ولكن الآزفة عندما أزفت كان المسئول الوحيد عنها هو أحمد رشدى الذى لم يقل هذا الكلام، وهو بالذات الذى نبه إلى أخطار الجنيهات الستة. لنأخذ درسًا مما حدث. لندرس مواضع تجمع الأعاصير ونبحث لها عن الحلول فى هدوء، وليدرسها الرجال العقلاء العارفون الذين أشرنا إليهم، إن مفاتيح الخير فى أيدينا فلنستعملها مرة، مرة لوجه الله!

---

* كان يعمل وزيرًا للداخلية أثناء كتابة هذه المقالة .